رحلة إلى أوروبا

1912

جرجي زيدان

حررها وقدم لها: قاسم وهب

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

« . . . رأينا على مراسح التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضرباً من التمثيل الانتقادي يسمونه في اصطلاحهم revue. وكثيراً ما ينتقدون الكتّاب ، أو رجال السياسة على كتاب ألفوه ، أو رأي رأوه . وقد شهدنا تمثيلاً من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر ، فمثّلوا عروساً عُقِد عليها لرجل ، وخرجت معه في الشارع فأصبحت كلّما رأت رجلاً تعرفه أو رأت أن تحبّه ضمّته وقبّلته ، وزوجها يرى ذلك . فإذا اعترضها احتجّت عليه بحريّة المرأة بقولها «إن هذا العصر عصر حريّة!» .

من نص الرحلة ص 30

«ومن الأخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كلّ منهم بنفسه عن سواه ، فلا يتعرّض أحد إلى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس ، وهي ثالثة مدائن العالم . وتجسس الأخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرّغ أهلها للأحاديث ، ولأنهم مطّلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض .» .

من نص الرحلة ص 41

استهلال

تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحد من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتابٍ ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلة جائعة إلى السِّحري والأيروسيِّ والعَجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والُمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالُمتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي

المقدمة

جرجي بن حبيب زيدان 1681 / 1914 كاتب وصحافي لبناني مشهور ، ولد ونشأ في بيروت لأسرة فقيرة . تعلم القراءة والكتابة ومبادئ النحو والحساب ، ولم يكمل تعليمه ، بسبب اضطراره للعمل إلى جانب والده ، حيث انقطع عن الدراسة لمدة تزيد على سبع سنوات ، لكن حنينه إلى المدرسة وتعلقه بالكتب دفعاه إلى متابعة التعلم الذاتي ، فأخذ في تعلم اللغة الإنكليزية ، وقراءة العديد من الكتب في الشعر والأدب والعلوم والرياضيات والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها ، مما أهله لدخول كلية الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت ، فأحرز تفوقاً في السنة الأولى ، ولكنه تعرض للفصل من الجامعة في غضون السنة الثانية لتزعُّمه إضراباً جامعياً لمناصرة أحد الأساتذة الذين فصلتهم الجامعة بسبب عرضه لنظرية داروين في النشوء والارتقاء ، وعارضها رجال الدين آنذاك ، فقررت الجامعة فصله ، في حين رأى الطلبة أن هذا الإجراء مناهض لحرية الفكر ينبغي الوقوف ضده بحزم ، ولكن الجامعة أصرت على موقفها ففصلت جميع الطلبة المضربين . وإثر ذلك تلقى الطلبة المفصولون دعوة من وكيل مدرسة الطب في القصر العيني بالقاهرة لمتابعة الدراسة فيها ، وكان جرجي زيدان من جملة الطلبة الذين لبُّوا هذه الدعوة ،

فانتقل إلى القاهرة نحو سنة 1883م وعقب وصوله بمدة وجيزة طرأ على حياته تحوّل كبير سوف نبيّن في ما يأتي بعض جوانبه .

في مصر

عندما وصل جرجي زيدان إلى مصر في مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر ، كانت قضايا النهضة وأسئلتها تستحوذ على اهتمام النخب المثقفة من المصريين ، وسواهم ممن وفدوا إليها من الديار الشامية وغيرها ، بسبب من سوء الأوضاع العامة فيها ، وطغيان الاستبداد العثماني ، ومصادرة الحريات ، ولكن الشاب القادم من بيروت لإكمال دراسة الطب في القاهرة ، سرعان ما وجد نفسه في خضم الجدل الدائر بين رجال الفكر والقلم ، حول استحقاقات التحديث لمواجهة تحديات العصر ، فترك الدراسة ، ليتّجه إلى العمل في الصحافة ، حيث التحق بجريدة «الزمان» الصحيفة اليوميّة الوحيدة في القاهرة آنذاك ، وبعد بضع سنوات تولّى إدارة مجلّة «المقتطف» الذّائعة الصيت ، عقب رحلة قصيرة إلى إنكلترا ، ثم عقد العزم بعد سنتين على تأسيس مجلّة «الهلال» وذلك عام 1892 ؛ ليجعل منها منبراً مفتوحاً لأهل القلم على اختلاف مواقفهم وآرائهم .

ولعلّ الهلال على خطورتها ، وأهمية الدور الثقافي والتنويري الذي اضطلعت به منذ تأسيسها ، لم تكن لتتسع لكل ما يجيش في نفس صاحبها من رؤى وأفكار ، فأسند إدارتها لأخيه «متري»(1) ؛ ليتفرّغ للبحث والتأليف ، وليؤسّس مشروعه الثقافي الريادي بحيث يكون مكملاً للهلال في بلورة مقتضيات النهضة ومرتكزاتها .

لقد رأى جرجي زيدان أن من ضرورات التمدّن أن تَعِيَ الأمّة ذاتها ، وأن تتعرّف إلى جوانب الضعف والقوة في تاريخها ؛ لتتمكّن من معالجة مشكلات الحاضر ، والتطلّع إلى المستقبل في عالم قطع أشواطاً في مضمار التمدّن والرقي . لذلك نظر مؤرخ التمدّن الإسلامي إلى مسألة النهضة بعينين فاحصتين ؛ عينٍ على الشرق

(1) راجع مجلة الهلال – عدد مايو 1972 ص 5 وما بعدها ، محمد حسن .

تتقرّى تاريخه ، وتفحص حاضره ، وتعاين أمراضه ، وعينٍ على الغرب تدرس عوامل نهضته ، وتجلّياتها في كافة الصعد ، وهو لا يغفل في الوقتً نفسه عما يعتري مدنية الغرب من مثالب يجدر بنا تجنُّبها .

إن النظر في عناوين مؤلفات جرجي زيدان يلقي الضوء على مشاغله واهتماماته الفكرية ، فهو رجل نهضوي بامتياز ، مضى جاداً في تأسيس مستلزمات النهوض غير عابئ بالعقبات ، فكتب روايات تاريخ الإسلام لربط الناشئة بتاريخهم ، وتوثيق علاقاتهم به ، بأسلوب جذّاب محبَّب يفهمه العامة ، وإن كان لا يرضي تطلّب الخاصّة ، وهذه «مزيّة لم يوفَّق إلى مثلها أكثر من سبقوه ولحقوه من أرباب الأقلام»[1]

ثم ألَّف كتابه الشهير : «تاريخ التمدّن الإسلامي» في خمسة أجزاء ، فأُثيرت حوله زوبعة من الجدل بين قادح ومادح دامت لعدّة عقود ، والكتاب استمرار لما بدأه من التعريف بتاريخ العرب والإسلام . ثم ألَّف «تاريخ آداب اللغة العربية» في أربعة أجزاء ، وكان سبّاقاً إلى هذا النوع من التأليف ، فجاء كتابه هذا مكملاً لتاريخ التمدن الإسلامي ، ومؤرخاً للنشاط العلمي والأدبي المدوّن باللغة العربية عبر العصور .

إن ما ألَّفه جرجي زيدان في الأدب والتاريخ والعلوم يربو على عشرين مؤلَّفاً ما عدا مجلَّدات الهلال الضخمة ، التي تشهد لصاحبها ببعد الهمّة ، والسعي الدؤوب لتحقيق هدفٍ سامٍ أفنى في سبيله أجمل سنوات العمر . ولعلَّ رحلته إلى أوروبا التي نحن بصدد تقديمها للقارئ جاءت تتويجاً لجهوده السابقة ، وكأنه حينما عقد العزم على القيام بها كان يحسُّ بدنو الأجل ؛ فسارع إلى تنفيذها وتدوين نتائجها بدقّة لا مزيد عليها ؛ ليُقدِّم للقارئ العربي صورة أمينة لتجربة الغرب الحضارية لعلّها تغريه باستلهامها ، واقتفاء أثرها للخروج من حالة التخلُّف والركود التي رانت على العقول والقلوب لعدّة قرون .

رحلته إلى أوربا

لم تكن رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا سنة 1912 رحلة استجمام واستمتاع بقدر

(1) محمد كرد علي – المعاصرون ص 144– مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

ما كانت رحلة علميّة مبرمجة ، تجشّم القيام بها في آخر العمر ليكتب وصفاً مفصلاً ودقيقاً عن أحوال المدنية الغربية ممثلة بكلٍّ من فرنسا وإنكلترا اللتين تجسّدان خلاصة هذه المدنية في جانبيها المادي والمعنوي ، في الوقت الذي كانت تتطلّع فيه عيون الشرقيين إلى الخروج من ربقة التخلّف ، والسير في ركاب الأمم المتمدّنة .

لقد أراد صاحب الرحلة – على حدّ قوله – أن يبيّن «ما يَحْسُنُ أو يقبح من عوامل تلك المدنيّة بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا ، وأخلاقنا»[1] فاختار أهم العناوين التي تقاس بها المدنيات ليقدم للقارئ العربي وصفاً أميناً لما يندرج تحتها من تفصيلات تعتمد على الإحصاء الدقيق المسند إلى السجلات الرسمية . فبدأ بالتعريف بنظام الحكم في كلا البلدين ، فهو في فرنسا جمهوري يُنْتَخَبُ فيه الرئيس لمدة سبع سنوات بأغلبية الأصوات من قبل مجلس الأمة ومجلس الشيوخ ، وعليه تنفيذ قرارات وتشريعات هذين المجلسين . وتناط بهذين المجلسين السلطة التشريعية ، في حين تكون السلطة التنفيذية بيد مجلس الوزراء . أما في إنكلترا فنظام الحكم ملكي مقيّد ، وإنكلترا من أعرق الأمم في الدستور . والحكم فيها يرجع إلى رأي الأمّة التي ينوب عنها مجلسا الأعيان والعموم .

إن نظام الحكم في البلدين لا مجال فيه للاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالشعب ، وحرمانه من المشاركة في الشأن العام كما هو سائد في معظم حكومات الشرق .

ثم يتطرّق صاحب الرحلة إلى الأمور التي تهمُّ القارئ العربي الذي يتطلّع إلى تحدي مدنيّة الغرب في نهضته المعاصرة ، فيصف العمران ، والمدن ، ونظامها الدقيق ، ونظافة شوارعها وأسواقها ، ومتاحفها ، ومعابدها ، ومكتباتها ، وآثارها ، وحياة الناس فيها ، وما توافقوا عليه من عادات في اللباس ، والطعام والشراب . ولا يفوته أن يحصي الثروات في كل بلد ، والحالة الاقتصادية ، ثم الحالة العلمية ، وأسماء الجامعات والكليات في كل بلد ، وأعداد طلبتها ، وتاريخ تأسيسها . ثم يصف حال المرأة في أوربا عامّة وفي فرنسا وإنكلترا خاصّة ، وما أحرزته من تقدّم في نيل حقوقها

---

(1) انظر مستهل الرحلة لاحقا .

في التعليم والعمل ، وحرية التصرف التي قد تصل إلى حد الشطط في بعض الأحيان .

إن الحديث عن الجوانب الماديّة في حضارة الغرب لم يشغل صاحب الرحلة عن الالتفات إلى الجوانب المعنوية ، وبخاصّة الأخلاق المصاحبة لهذه الحضارة . فذكر طباع الناس في كل بلد ، وما يمتاز به كل شعب عن الآخر ، فالفرنسي نشيط ، دؤوب ينهض إلى عمله بهمّة وحماسة يحبُّ الجمال ، ويميل إلى الاقتصاد في النفقات ويحبُّ الترتيب والنظافة في المأكل والملبس ، ويحرص على أداء الواجب ، ويعرف قيمة الوقت ، ويصدق الوعد ، ويفخر بعظماء وطنه ونابغيه ، ويعتزُّ بحريته .

في حين أن الإنكليزي يمتاز بالثبات على الحقيقة ، والكبرياء ، والأنانيّة ، ويُعنى بالتربية البدنيّة والعقليّة ، ويحافظ على التقاليد ، ويمتاز بالصدق والوفاء ، والتديّن ، يحبُّ النظام ويؤدّي الواجب

دون رقيب . إن الناظر إلى المزايا الأخلاقيّة لكلا الشعبين يرى أن وجوه الاتفاق فيها أكثر من وجوه الاختلاف ، كما أن هذا التقدم المادي يصاحبه تقدم معنوي وأخلاقي يدفع بهذه الحضارة إلى الأمام ويحول دون تدهورها وانحطاطها .

ومما يلحظه القارئ لهذه الرحلة حرص كاتبها على الموازنة بين الشرق والغرب في الكثير من المسائل ، كالتعليم في فرنسا ، ونظيره في مصر ، والفرق بينهما من حيث المستوى والإنفاق .

كما وازن بين فن التمثيل في فرنسا ومثيله في مصر وبين وجوه الاختلاف ، فالفرنسيُّون يجمعون في فن التمثيل بين الجد والهزل ، وينتقدون السلبيات ، ويهتمُّون بالشؤون اليومية لحياة الناس .

ومما يجدر بالذكر تلك الموازنة التي عقدها جرجي زيدان بين الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها حضارة الغرب ، والأسس التي قامت عليها حضارة العرب في الماضي ، فمدنيّة العرب أساسها مناقبهم في صدر الإسلام ، كالأريحيّة ، والنجدة ، وحسن الجوار ، والوفاء ، والحلم ، وكرم الخلق ونحوها . وهذا ممّا لا يلائم المدنيّة الحديثة التي تقتضي مبادلة الحقوق والواجبات ، لا حلم ولا عفو ، ولا أريحية ولا نجدة ، وإنما ينال المرء من الرزق والمنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الأخلاقيّة

والاقتصاديّة ، والاعتبارات السياسيّة .

إن هذا الرجل القادم من الشرق إلى أوروبا ، لم تبهره حضارة الغرب إلى الحد الذي يحجب عنه الرؤية الواضحة لمحاسنها وعيوبها ، كما أنه بدا متماسكاً إزاء التفاوت الكبير بين أحوال الغرب وأحوال الشرق ، فأقصى عواطفه جانباً ؛ ليترك الأرقام والإحصاءات تتحدّث عن واقع الغرب ، ومع ذلك فقد سمح لنفسه أن يتحدّث على نحو مباشر مبيناً ما ينبغي أخذه من المدنيّة الغربيّة ، وما يجب تركه فقال :

«في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيّات أوروبا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها ، ولكن فيها سيئات يجب تجنُّبها والابتعاد عنها فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

* معرفة الواجب .
* المحافظة على الوقت ، وصدق المواعيد .
* تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة .
* تعليم المرأة وتثقيفها .
* ترقية التعليم والتوسع في الآداب .
* العمل والجد .

أما ما يجب علينا تجنبه من أدران تلك المدنية أهمّه :

* الإفراط في الحريّة ، واستخدامها في غير موضعها .
* ما يخالف الحشمة الشرقيّة ، على أن نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا .
* الفتور في الدين ، والمجاهرة في الكفر ؛ فإنه من أسس الخراب .[1]»

(4) ينظر في متن الرحلة : المرزة الفرنساوية وما بعدها .

في سويسرا

وكانت سويسرا هي المحطة الثالثة والأخيرة التي توقّف فيها جرجي زيدان على عجل ، ولم يوفّها حقّها من الوصف ، مما يرجّح أنها كانت محطّة الاستجمام الوحيدة في رحلته ؛ لما تتمتّع به من طبيعة ساحرة تجذب السيّاح من أنحاء العالم كافة .

لقد ذكرته جنيف من حيث مناظرها الطبيعية بالأستانة وبوسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوّة بالأشجار والقصور ، ولكنّه لم يجد مسوّغاً للإطالة في وصف هذه البلاد ؛ لأنّ رحلته رحلة عمل أراد منها وصف مدنيّة الغرب في أكثر نماذجها تقدماً ورقيّاً .

بين فرنسا وإنكلترا

وفي حديثه عن نتائج حملة نابليون على مصر كان جرجي زيدان مبالغاً في تقدير إيجابيّاتها بحيث جعل لفرنسا فضلاً على الشرق كلّه من أوجه كثيرة ظهرت آثاره في أخلاق أهله وآدابهم . فهذه الحملة نقلت معها بذور المدنيّة الحديثة ، وذلك من خلال الحملة العلميّة المصاحبة لمدافع نابليون وجيوشه الجرّارة ، والتي جمعت نخبة من خيرة علماء فرنسا آنذاك .

وحينما ارتدّ الفاتح على أعقابه ، وانسحبت فلول الجيش الفرنسي من مصر ، ظلّت تلك البذور كامنة إلى أن تعهّدها رجال من الشرق بالعناية والرعاية ؛ فآتت أُكلها ، وكانت منطلقاً للنهضة العربيّة الحديثة في مصر والشام .

كما سعى كل من الأتراك والفرس إلى الإفادة من مدنيّة فرنسا لمّا همّوا بنهضتهم الأخيرة .

وممّا لا شكّ فيه أن لحملة نابليون آثاراً إيجابيّة نجمت عن ذلك الاحتكاك القسري بين الغرب والشرق من جانب نابليون الذي كان يحلم بالسيطرة على العالم ، وإخضاعه لصولجانه بالقوة القاهرة ، وهذه الآثار إنما هي من باب تأثير الغالب في

المغلوب . فكيف يمكننا أن نسلّم بتسمية كل ذلك فضلاً؟!

ولو عاصر جرجي زيدان ما فعلته فرنسا بالشرق فيما بعد لأعاد النظر في هذه التسمية .

وحينما يذكر جرجي زيدان الاستعمار الإنكليزي ، لا يبدي إزاءه ذلك القدر من التعاطف الذي أبداه في حديثه عن الفرنسيين ، بل توخّى الموضوعية في الوصف ؛ فالإنكليزي تهمُّه الفائدة الحقيقية من الاستعمار ، وهو لا يعبأ بزخرف السيادة وأُبَّهة السلطة ، وذلك عائد في رأي الكاتب إلى الخُلق الإنكليزي الذي يُعوّل على الحقيقة مع الثبات .

والإنكليز يمتازون بالأناة والصبر لتحقيق مطامعهم الاستعماريّة ؛ لهذا لا نراهم يستعجلون بسط الحماية على مستعمراتهم ، أو إعلان السيادة عليها ، فيسمحون لها بالاستقلال الإداري شريطة المحافظة على مصالحهم الماديّة .

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نقول : إن صاحب الهلال قدّم لنا صورة دقيقة واضحة عن أحوال الغرب ، كما بيّن مدى تقدُّمه على الصعيدين المادي والمعنوي ، وسجّل مآخذه على بعض الجوانب الأخلاقية دون مواربة ، وعقد الموازنات بين الغرب والشرق ، وهو في ذلك جميعه رائد مؤتمن ، والرائد كما تقول العرب لا يَكذِب أهلَه ؛ إذ إنه لم يلجأ إلى المبالغة والتهويل ، أو الانتقاص والتقليل ، بل لزم الموضوعيّة والاعتدال ، على الرغم مما لاحظناه من تقويم إيجابي لنتائج الحملة الفرنسية على مصر ، وتنويه بفضل الفرنسيين على الشرق ، ذلك لأن مثل هذه الأمور سوف تظلُّ قابلة للجدل ، واختلاف الآراء .

وختاماً فإننا أردنا لهذه المقدمة أن تكون مدخلاً للاقتراب من الكاتب والكتاب ، ودعوةً للقارئ الكريم إلى النظر في هذه الرحلة ، والاطّلاع على الدور الريادي الشاق الذي نهض به الأسلاف خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، والعمل على خدمة هذه الأمة ، والأخذ بيدها للسير في طريق الرقيّ والتقدّم .

قاسم وهب

مسار الرحلة

1- فرنسا :

- مرسيليا
- ليون
- باريس

2- انكلترا :

- لندن
- كامبردج
- منستر
- أوكسفورد

3- سويسرا :

- جنيف
- لوزان
- إيفيان

نص الرحلة

القسم الأول: فرنسا

قضينا صيف هذا العام في أوربا بين فرنسا وإنكلترا وسويسرا وتنقّلنا في أهم مدائنها فزرنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكامبردج ومنشستر وأوكسفورد وجنيف ولوزان وافيان . ودرسنا أحوالها وتفقّدنا متاحفها ومكاتبها وآثارها . وتوخّينا النظر على الخصوص في ما يهمّ قُرّاءَ العربية من أحوال تلك المدنيّة التي أخذنا في تقليدها منذ قرن كامل و نحن نتخبّط في اختيار ما يلائم أحوالنا منها . وسننشر في ما يلي خلاصة ما بلغ إليه الإمكان من ذلك الدرس .

ونقتصر من ذلك على ما يهمّ القارئَ الشرقيَّ من حيثُ حاجتُهُ إلى تحدّي مدنّية أولئك القوم في نهضته هذه . ونبيّن ما يحسُنُ أو يقبُحُ من عوامل تلك المدنيّة بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا .

وسنُغفل سياقَ الرحلة فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا وما لاقيناه أو كابدناه في أثناء ذلك على ما جرت به عادةُ أهل الرحلة إذ ليس غرضُنا أن يكون ما نكتبه دليلاً للراحلين في السفر والنزول ، ومعرفة الطرق والمسافات والأجور . وإنما نريد أن نمثّل

للقارئ ما طبع في ذهننا أثناء هذه الرحلة بعد إعمال الفكرة في أحوال تلك الأمم . ولذلك نقسّم الكلام إلى ثلاثة أقسام باعتبار الممالك التي زرناها على ترتيب تلك الزيارة فنبدأ بفرنسا فإنكلترا فسويسرا .

نظام حكومتها

تقلّب نظامُ الحكومةِ الفرنساوية على أوجهٍ شتّى واستقر في 4 سبتمبر سنة 1870 على الجمهورية . وتثبت ذلك في 16 يوليو سنة 1875 بقانون دستوري تعدّل بعضَ التعديل بعد ذلك . وهو يقضي أن ترجع قوةُ التشريع إلى مجلس الأمة ، ومجلس الشيوخ ، وقوة التنفيذ إلى رئيس الجمهورية والوزارة .

وهم ينتخبون رئيس الجمهورية كلّ سبع سنوات بأغلبية الأصوات ، ولانتخابه يجتمع المجلسان المذكوران في الجمعية العموميّة . وعليه تنفيذ ما يقرّرانه أو يشرّعانه . وهو يشكّل الوزارة من المجلسين ويجوز أن يكون بعضُ الوزراء من غير أعضائها . وهو يعيّن الموظفين الملكيين[1] والعسكريين . ويعقد المعاهدات مع الدول الأخرى . لكنّه لا يقدر أن يعقد معاهدة تتعلق بمساحة أرض فرنسا أو مستعمراتها إلاّ بمصادقة القوة التشريعية[2] . ولا يجوز له أن يعلن حرباً إلا بموافقة المجلسين . وكلّ عمل من أعمال الوزارة يجب أن يُمضيه رئيسُ الجمهورية مع أحد الوزراء . ويستطيع هذا الرئيس بالاتفاق مع مجلس الشيوخ أن يحلّ مجلس النواب .

والوزارات والنّظارات 13 نظارة هي : الداخلية ، والمالية ، والأشغال العمومية ، والحربية ، والبحرية ، والحقّانية ، والمستعمرات ، والمعارف العمومية ، والخارجية ، والتجارة ، والزراعة ، والعمال ، والأديان .

وينتخب النواب لأربع سنوات بالتصويت العام . وكل فرنساوي من غير الجند بلغ الحادية والعشرين من عمره له حقُّ التصويت في الانتخاب بشرط أن يثبت إقامته

---

(1) الموظفون الملكيون : موظفو الحكومة الرسميون .

(2) يقصد السلطة التشريعية .

ستة أشهر في البلد الذي يريد أن يصوت لنائبه . أما النائب فيجب أن يكون سنُّهُ 25 سنة على الأقل . وعدد النواب الآن 584 نائباً ، وعدد المنتَخِبين بين عشرة ملايين وسبعة ملايين . ومجلس الشيوخ مؤلّف من 300 عضو يُنتَخبون لتسع سنوات من أعيان الفرنساويّين ولا يكون سنُّ أحدهم أقلّ من 40 سنة . يتقاعد ثلثهَم كلَّ ثلاث سنين ، ويُنتخَب غيرهم . وانتخاب الشيوخ منوط بلجنة مؤلّفة من مندوبين عن مجالس البلدية في الولايات على نسبة عدد سكانها ، ومن النواب . فينتخبون 522 شيخاً ينوبون عن الولايات يُضاف إليهم 75 شيخاً ينُتَخبون لطول الحياة بإجماع المجلسين . ولا يجوز انتخابُ أحد من أعضاء الأسرة الملكية «المخلوعة» في أحد المجلسين .

الراتب واحد للنواب والشيوخ ، فيستولي النائب أو الشيخ على 15000 فرنك في السنة «نحو 600 جنيه» وأما رئيس المجلس فيأخذ فوق ذلك 72000 فرنك «نحو 2840 جنيهاً» للنفقات . ويسافر أعضاء المجلسين في السكك الحديدية بنفقات زهيدة . وراتب رئيس الجمهورية 600000 فرنك أو نحو 24000 جنيه . ونحو هذا المبلغ للنفقات الرسمية .

وعندهم مجلسٌ للشورى أنشأه نابليون الأول ولا يزال باقياً يرأسه ناظر الحقّانية .[1] وهو مؤلّف من مستشارين قضائيين وعلماء في القضاء للنظر في ما تعرضه عليهم الحكومة وأكثره يتعلق بالإدارة ونحوها

عمرانها

فرنسا قُدوةُ الممالك المتمدّنة في روح المدنية الحديثة وأكثرهنَّ احتكاكاً بالشرق الأدنى . وكنّا إلى عهد غير بعيد لا نعرف سواها قدوةً لنا في أحوالنا الاجتماعية والأدبية والسياسية والقضائية ولا نزال أكثر معرفة بها ممّا بسواها

مساحة مملكة فرنسا 207054 ميلاً مربعاً وعددُ سكانها 39000,673 نفس .[2] منهم نحو 30000000 نفس من أهل الفلاحة ، والباقون من سكان المدن يتعاطون

---

(1) هو من نسميه اليوم : وزير العدل .

(2) جميع الإحصاءات التي ترد في هذا الكتاب مأخوذ عن ذلك الوقت فهي صحيحة لسنة 1912

الصنائع والمهن والوظائف والمصالح . وفيها ستون مدينة سكان كلّ منها فوق 35000 نفس أكبرها باريس عدد سكانها 2846986 نفساً ، فمرسيليا 517497 ، وتليها ليون 472114 نفساً . ثم تأتي بوردو ،وليل ، وتولوز ، وغيرها إلى روان وسكانها 35516 نفساً .

وفرنسا من أكبر الممالك ثروة نعني أهل فرنسا فإنّهم يُعَدُّون في مقدمة الأمم من حيث الثروةُ الخصوصيةُ . واختلف الباحثون في مجموع تلك الثروات فوجد المسيو دي فوفيل الباحث الاجتماعي أن فرنسا تقدر قيمتها على هذه الصورة :

جنيه	
3000000000	أرض زراعية .
2000000000	أبنية .
2000000000	نقود .
2800000000	ضمانات وتأمينات .
400000000	أدوات زراعية ومواش ونحوها .
680000000	ممتلكات أخرى .
9080000000	

وقدّرها غيرُهُ بأكثرَ من ذلك ، فبلغ مجموعها في تقدير جويو 9520 مليون جنيه . وبلغ دخل فرنسا السنوي في تقدير ليروا بوليو 1000000000 جنيه ثلاثة أخماسه من نتاج العمل الشخصي .

وفي كل حال فإن الفرنساويين مشهورون بالاقتصاد والاحتفاظ بالمال . والفقر المدقع عندهم أقلّ كثيراً مّما في سائر الممالك الكبرى .

وفرنسا كثيرة المعامل واسعة التجارة ولها في الصناعة الدقيقة القِدْحُ المعلىّ ولبضائعها شهرة طائرة في الجمال وسلامة الذوق وهي قدوة الأمم المتمدينة في الأزياء من الملابس وغيرها . وعاصمتها باريس مرجع أمم الأرض في كلّ ذلك مّما هو مشهور لا يحتاج إلى بيان . وسنعود إليه عند الكلام على الأحوال الاجتماعية .

أما مالية الحكومة الفرنساوية فبلغ دخلها في السنة الماضية 170767054 جنيهاً منها 51 مليون جنيه دفعت عن الدين و35 مليوناً للحربية و16 مليوناً للبحرية

حالتها الاقتصادية

فرنسا أرض زراعية خصبة تزيد مساحة ما يزرع منها على 130000,000 قصبة . وأكثر حاصلاتها الحنطة والكرم والعلف والبطاطس . وللخمور غلة كبرى بلغت قيمتها سنة 1910 نحو 38000,000جنيه . وفيها من الماشية والحيوانات الأهلية . كما يأتي :

عدد	
3133650	خيول
19400	بغال
363000	حمير
14234000	ماشية من البقر ونحوها
17234000	من الغنم
7202000	خنازير
1424000	ماعز

أما الصناعة فالحرير له سوق رائجة عندهم وقد بلغ عدد المشتغلين في تربية دود القز سنة 1908 نحو 123800 عامل . ومقدار البزر الذي استولدوه 187000 أوقية وبلغ محصولها 8409299 كيلو غراماً من الفيلجات .(1)

وفي فرنسا كثير من المناجم المعدنية تناهز 600 منجم فيها 230000 عامل وفيهم النساء والأولاد . وبلغت غلة هذه المناجم نحو 26656000 جنيه أكثرها من الفحم والحديد .

وهي كثيرة المعامل على اختلاف أنواعها أهمها معامل نسج القطن والصوف

(1) جمع فيلجة بكسر الفاء وسكون الياء وفتح اللاّم وهي شرانق الحرير التي تنسجها دودة القز ، ومنها يؤخذ الحرير الطبيعي .

والحرير ، ومصانع الأدوات الحديدية ، وأدوات البناء . وهاك أهم المعامل وعدد عمالها :

	عدد العمال
معامل لنسج القطن	167200
= = الصوف	171000
= = الحرير	123000
= لصنع الخزف	166000
للمصنوعات الحديدية	570000
عملة أدوات البناء	550000
معامل الدنتيلا وتوابعها	156000
معامل الملبوسات على أنواعها	938000
للمصنوعات الخشبية	704000
للمصنوعات الجلدية	334000

ومن أهم حاصلات فرنسا السكر فإن له 251 معملاً وتبلغ غلته في العام نحو مليون طن . وكذلك الكحول فإن غلته تزيد على 45 مليون جالون . غير غلة المصائد ونحوها .

أما التجارة فلفرنسا شان كبير وقد بلغت قيمة صادراتها لسنة 1910 نحو 220 مليون جنية ووارداتها 270 مليوناً .

حالتها العلمية

إنّ آداب اللغة الفرنساوية أشهر من أن تُعرَّف . ولا يفي بوصفها إلاّ المجلدات لكثرة من نبغ فيها من العلماء والأدباء والشعراء . وبكثرة ما فيها من الصحف والمجلات على اختلاف مواضيعها ، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً في الهلال . وإنّما نريد هنا حالها من حيث التعليم والمدارس .

إنّ للحكومة الفرنساوية عناية كبرى في التعليم تنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة على يد نظارة المعارف . والمدارس عندها طبقات : مكاتب «كتاتيب» ومدارس ابتدائية وثانوية وعالية .

فنكتفي بفذلكة في التعليم العالي الذي يُلقى في الجامعات الكبرى وفي الكليات الخاصة ونحوها : وهو حرٌّ مطلق بناء على قرارات رسمية صدر آخرها سنة 1897 والجامعة عندهم تحتها كليات أو مدارس تختلف أسماؤها باختلاف مواضيعها هاك أشهرها :

– مدارس الحقوق : هي 13 مدرسة في باريس ، واكس ، وبوردو ، وكاين وديجون ، وغرينوبل ، وليل ، وليون ، ومونبلية ، ونانسي ، وبواتيه ، ورين وطولوز .

– مدارس الطب : هي سبع مدارس في باريس ، ومونبلية ، وبوردو ، ولبل ، ولبون ، وطولوز ، ونانسي .

– كليات العلوم : هي 15 كلية في باريس وبزانسون ، وبوردو ، وكاين وكليرمون ، وديجون ، وغرينوبل ، وليل ، وليون ، ومرسيليا ، ومونبليه ، ونانسي ، وبواتيه ، ورين ، وطولوز .

– كليات الآداب : هي 15 أيضاً في المدن التي تقدم ذكرها غير المدارس التجهيزية أو التي يراد بها التبحر في بعض العلوم الخاصة . أما عدد المتخرجين في هذه المدارس فهاك أجمالهم حسب المواضيع لسنة 1910 :

عدد التلامذة	
16915	في الحقوق
8029	الطب
6287	العلوم
6373	الآداب
3450	الصيدلة وغيرها
41044	

وهذا العدد من طلاب العلوم العالية في الكلّيات الأميريّة منه 35800 طالب من الفرنساويين و5244 من الأجانب . بينهم جميعا 3830 من النساء ثلثاهن من

الفرنساويين .

هناك مدارس عالية غير أميرية[1] : منها في باريس الكلية الكاثوليكية لتعليم الحقوق والآداب العالية . ومدرسة التعليم الحرّ العالي . والكلية الحرّة لتعليم العلوم السياسية . وفي المجرس مدارس للاّهوت ، والحقوق ، والعلوم ، والآداب ، والزراعة . ومثل ذلك في ليون ، وليل ، ومرسيليا ، وطولوز . والمدارس الأميرية تمنح تلامذتها رتباً علمية هي «1» البكالوريا العلمية «2» شهادة الحقوق «اللسانس» «3» الدكتورية . وتمنح رتبة أستاذ للتعليم الثانوي والعالي .

وفي فرنسا غير ما تقدم من المدارس العالية مدارس كبرى تابعة لنظارة المعارف أشهرها :

- كلية فرنسا College de France أسسها فرنسيس الأول سنة 1535 وهي أرقى مدارس فرنسا على الإطلاق يُعلّم فيها 50 فرعاً من أعلى طبقات العلم في الآداب ، واللغات ، وعلم الآثار ، والرياضيات ، والطبيعيات، والعقليات، والاجتماعيات، والسياسة، والاقتصاد وغيرها .
- معرض التاريخ الطبيعي : للتفقّه في هذا العلم .
- المدرسة العلمية للعلوم العالية : في التاريخ ، والفيلولوجيا ، والرياضيات ، والعلوم الكيماوية والبسيكولوجية . والعلوم الطبيعية والدينية الراقية . ومقرّ هذه المدرسة في السوربون بباريس وعلومها 18 فرعاً .
- مدرسة المعلمين العليا : يتخرّج فيها المعلمون للتعليم في المدارس الثانوية . واتبعت خطة السوربون بدون أن يكون لها أساتذة معينون .
- مدرسة السجلات : لتعليم الخطوط القديمة والآثار ثمانية فروع .
- مدرسة اللغات الشرقية الحية : بها 16 فرعاً من فروع اللغات الحية الشرقية .
- مدرسة اللوفر : تعلم فن الآثار .
- مدرسة الفنون الجميلة .
- مدرسة الرصد بباريس .

---

(1) غير حكومية

غير المدارس الفرنساوية خارج فرنسا كمدرسة الحقوق في القاهرة ، ومدرسة الطب في بيروت . فإن مثلها في أثينا وروميه والهند الصينية وفي مراكش . ولفرنسا خارج باريس ثمانية مراصد .

وغير التعليم الصناعي أو الفني ، فانه واسع لكنه خارج عن دائرة نظارة المعارف .

أشهر مدارسه : مدرسة الصنائع والفنون في باريس «كونسيرفاتوار» تلقي عشرين علماً ليلياً في العلم ، والاقتصاد السياسي . ومدارس أخرى للتجارة والصناعة تابعة لنظارة الزراعة ، وغيرها تابع لنظارة الحربية أو المستعمرات أو غيرها مما يطول شرحه . وكلّها في باريس ومثلها أو أقل منها في خارجها مثل اكس ، والجرس ، وشالون ، وكليني ، وليل وغيرها . وغير مدارس الموسيقى والخطابة ومدارس لتعليم الخدمة على الموائد ، وتربية الأطفال وغير ذلك .

التعليم بمصر

والاطلاع على أسماء هذه المدارس يدل وحده على الفرق العظيم بين التعليم عندنا وفي تلك المملكة[1] الراقية ، فقد ذكرنا عشرات من المدارس لا وجود لها عندنا ، ولم نذكر غير المدار العالية . وقد أغفلنا المدارس الابتدائية والثانوية التي عندنا مثلها . على أن مدارسنا هذه أحطّ كثيراً من أمثالها عند الفرنساويين ، والابتدائية أقل كثيراً من المدارس الابتدائية عندهم ، والمدارس الثانوية كذلك . وحامل البكلورية المصرية أقل معرفة من حامل البكلورية الفرنساوية . فالتعليم عندنا ضعيف جداً من كل وجه وسنفرد فصلاً خاصاً في هذا الموضوع . وإنما يكفي في هذا المقام أن نبيّن تقاعد حكومتنا أو أغنيائنا عن التعليم . ولا يُحتجّ علينا بصغر مصر بالنسبة إلى فرنسا فإن سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ، ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عشر ما تنفقه فرنسا . إن ميزانية المعارف الفرنساوية 11557000 جنيه ، فكم هي ميزانية حكومة مصر للمعارف ؟ إنها نحو نصف مليون .

---

(1) يلاحظ أن جرجي زيدان يستعمل كلمة مملكة بمعنى الدولة .

وقد يحتجون بتقصير المالية المصرية عن المالية الفرنساوية لأن المالية الفرنساوية 170 مليون جنيه ، والمصرية اقل من عشر هذا المبلغ فلا عجب إذا دفعت للمعارف عشر ما تدفعه فرنسا . ولكن فرنسا تدفع من ماليتها أموالاً لا تدفع مصر شيئاً منها فالفرنساويون ينفقون على الحربية نحو ربع ميزانيتهم . أما مصر فربع ميزانيتها يكفي لنفقات كل نظاراتها ، وفرنسا تدفع نحو ثلث دخلها لوفاء الدين وأمّا مصر فتدفع خمس دخلها فقط لهذا الغرض ومع ذلك فهي تنفق على المعارف 20/1 ، مما تنفقه فرنسا .

وفي فرنسا جمعيات علمية «أكاديميات» عديدة لكلّ فرع من فروع العلم أهمها الأكاديمية العلمية أو أكاديمية العلوم . وأكاديمية العلوم والنقوش . وأكاديمية الفنون الجميلة . وأكاديمية العلوم الأدبية والسياسية . وأكاديمية الطب وغيرها . وكل أكاديمية مؤلفة من 40 عضواً أو أكثر ولكل منهم اختصاص بفرع من فروع العلم التي تبحث فيها . غير ما هنالك من المتاحف العلمية والصناعية والمدارس على اختلاف أحوالها .

وغير الجمعيات المؤلّفة لتنشيط العلم والأدب أو لحفظ حقوق المؤلّفين والمترجمين ، ومراقبة سير العلوم من حيث الصحافة ، وغيرها ، وغير المعارض والمتاحف فإنها من ظواهر الرقيّ العلميّ وسنأتي عليها .

المراسح والتمثيل

ليس المراد أن نَصِفَ المراسح التمثيلية فإن لدينا منها أمثلة حسنة في مصر والإسكندرية وإن كانت أقلّ ممّا في باريس فأنها تشبهها ، حتى كثيراً ما تعرض فيها روايات فرنساوية يمثلها أجواق من باريس . لكننا رأينا على مراسح التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضرباً من التمثيل الانتقادي يسمونه في اصطلاحهم revue ويريدون به انتقاد العادات والأخلاق والآداب على المراسح في شكل بين الجدّ والهزل يلذّ للمشاهدين لأنه يتعلق على الخصوص بالأمور الجارية التي يتحدث بها الناس . وكثيراً ما ينتقدون الكتّاب ، أو رجال السياسة على كتاب ألفوه ، أو رأي رأوه . وقد شهدنا تمثيلاً من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه

حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر ، فمثّلوا عروساً عُقد عليها لرجل ، وخرجت معه في الشارع فأصبحت كلّما رأت رجلاً تعرفه أو رأت أن تحبّه ضمّته وقبّلته ، وزوجها يرى ذلك . فإذا اعترضها احتجّت عليه بحريّة المرأة بقولها «إن هذا العصر عصر حريّة» . وانتقدوا عادة البراز انتقاداً يحقّرها في عيون محبيها ، وانتقدوا مقالات كتبت في الأحوال الجارية بباريس . وشهدنا في تمثيل أخر في جنيف انتقاد المعاهدات الدولية والمجاملات السياسية ، ومثلوا في جملتها حرب الدولة العثمانية والإيطاليان وغير ذلك . فهذا الأسلوب من التمثيل لا مثيل له عندنا لكنة مفيد ولذيذ .

مظاهر حضارتها

أرقى مدائن فرنسا بلا خلاف باريس ومع ذلك فالذاهب إليها من مصر لا يجد فيها ما يدهشه من حيث ظواهر المدنيّة الحديثة كالشوارع الواسعة ، والأبنية الفخيمة والأنوار الكهربائية ، وازدحام الأقدام والبذخ في الألبسة والتفنن في الأزياء لأن في مصر أمثلة من ذلك لكنها في باريس أفخم وأجمل . ولا غرو فإن حضارة مصر الحديثة صورة مصغرة من حضارة باريس . والمرحوم إسماعيل باشا[1] صاحب الفضل الأكبر في تنظيم شوارع القاهرة وإنشاء الأبنية الفخيمة فيها ، إنما كان يفعل ذلك تقليداً لباريس ، وكان مفتوناً بالفرنساويين ومدنيّتهم . وظل ذلك مستمراً بعده إلى عهد قريب .

فلا ينبغي لنا أن نطيل الكلام في وصف شوارع باريس الكبرى وسعتها وما يحفُّ بها من المخازن ، وما يعرض في تلك المخازن من السلع الثمينة ، أو ما يتلألأ في الليل من الأنوار الكهربائية على اختلاف ألوانها ، ولا تعداد ضروب المركبات في العربات .

---

(1) إسماعيل باشا (1830 – 1895) حاكم مصر من سنة 1863 – 1895م ابن إبراهيم باشا ، منحه السلطان عبد العزيز لقب خديوي .
دشن قناة السويس سنة 1869م . اشتهر بمشاريعه العمرانية والثقافية .

فالأوتوموبيل ، فالترامواي ، فالأوتوبيس ، فالامنيبيس فالمتروبوليتان وغيره - فإن هذه لها أمثلة بين ظهرانينا ولكنها عندهم أكثر عددا والركاب أكثر ازدحاماً . وإنما تمتاز عمّا في مصر وغيرها من مدائن الشرق ، أن السائق لا مطمع له في الركاب ولا سبيل إلى طلب الزيادة عن حقه . لأن المركبات الكبرى العمومية كالترامواي وغيره لها رسوم معينة كما في مصر . والمركبات الصغرى كالعربات والأوتوموبيل أصبحت كلها مقيّدة بالعدّاد «تكسيمتر» ، وهذه الآلة تعيّن الأجرة اللازمة وتغني الناس عن النزاع .

المركبات العامة

وقد استلفت نظرنا على الخصوص أن باريس مع تزاحم الأقدام فيها لا يتنازع الركاب في المسابقة إلى الترمواي أو الأومنوبيس ، ولا يسمح لأحد بالوقوف بين الركاب إذا لم يكن له مجلس فارغ . ولا يجسر أحد على الركوب في غير دوره . لا يختلفون في ذلك ولا سبيل إلى الاختلاف ؛ لأن عند كل موقف من مواقف هذه المركبات لوحاً معلّقاً بعمود منصوب على الرصيف وعليه دفتر صغير الحجم أوراقه منمّرة نمراً متسلسلة فالذي يسبق إلى الموقف يقتطع النمرة الأولى ، ومن يأتي بعده يتناول النمرة التالية وهكذا . وقد يجتمع في الموقف عشرات من الناس وربما جاء القطار وليس فيه مكان إلاّ لخمسة أو ستة فلا يؤذن بالدخول إلاّ لمن كانت عندهم النمر الأولى بقطع النظر عن أحوالهم من الغنى أو الفقر أو الوجاهة .

ومثل هذه العادة في لندن عند تكاثر الركاب ساعة الظهر لركوب الترامواي . فقد جعلوا في المحطات التي يكثر التزاحم عندها موقفاً مستطيلاً لا يدخله الناس إلا أزواجا . أوله عند محطة القطر وآخره في الشارع لا حد له . فالواصل الأول يقف قرب المحطة تماماً والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا أزواجاً . وقد يتألّف من الواقفين سلسلة طولها عشرات من الأمتار ، وكل منهم ينتظر دوره بلا نزاع ولا خصام . ويفعلون نحو ذلك في كل ما تتزاحم فيه الأقدام كالدخول إلى المراسح أو قطع تذاكرها . فالسابق يقف عند شباك التذاكر والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا وقد تتألف من الواقفين سلسلة طويلة رأينا واحدة منها عند مرسح بمنشستر . والمرسح في بناء كبير

قائم بنفسه رأينا المنتظرين وقوفاً في سلسة طويلة وقد يحيطون بالبناء من أربع جهاته أوّلهم عن يمين شباك التذاكر وآخرهم عن يساره .

وممّا يحسن استطراده ويهمنا أمره في هذا المقام أن قومساري الترامواي أو غيره من المركبات العمومية لا يحتاجون إلى مفتشين يتفقدون سيرهم خوفاً من السرقة كما هو حال الترامواي عندنا . وقد يكون للترامواي الفرنساوي أو الإنكليزي مفتشون ولكنهم لا يتفقدون المركبات إلا نادراً وقد ركبنا في تلك المركبات عشرات من المرات لم نشاهد فيها مفتشاً ولا لحظنا من القومساري مطمعاً في التذاكر كاستخدام التذكرة مرتين لراكبين أو قبض الجُعْل[1] بدون أن يعطي التذكرة و لا رقيب عليهم من الشركة . و لعل السبب في ذلك أن الشركة تدفع لهم الرواتب الكافية لمعاشهم فلا يرون حاجة إلى السرقة . ولو أرادوا السرقة لا يجدون من الركاب من توافقهم عليها كما يقع كثيرون بيننا حتى أن بعض ركاب الترامواي بمصر يحرض القومساري على سرقة الشركة بقوله : «بلاش تذكرة» فيعطيه القرش ولا يأخذ التذكرة . وذلك ناتج عن ضعف في الأخلاق لا نراه عند أولئك .

الإعلان

والتزاحم في العواصم الكبرى يسهل رواج السلع على طلاب الرزق . وقد يستغرب قومنا بمصر ، أو الشام كيف ينفق في أسواق باريس ، أو لندن أشياء لا فائدة لها أولا تستحق الرواج . وإنما السبب في ذلك كثرة الناس لأن من يعرض سلعة في الشارع لا يمضي عليه ساعة حتى يمرّ به مئات من الناس فلا يخلو أن يكون فيهم من يقع اختياره على تلك السلعة ؛ فيشتريها ولو على سبيل التجربة ، وإنما يطلب من صاحب السلع أن يستلفت الأذهان إلى بضاعته وهذا هو السبب في اهتمام الإفرنج بالإعلان حتى أن أحدهم إذا همّ بإنشاء تجارة أو صناعة أعد رأس مال بالإعلان قبل رأس مال البضاعة . وقد تفنّنوا في ذلك تفنّناً عجيبا فهم يعلنون في الجرائد وعلى

(1) الجعل بفتح الجيم وضمّها وسكون العين : الأجر .

أغلفة الكتب وعلى جدران المنازل وأسطحتها وعلى الموائد وأغلفة المساوك وفي مركبات الترامواي والأومنيبيس والقطر الحديدية وفي المحطات- حتى الحقول ، فإنك وأنت راكب في القطر من مدينة إلى أخرى يقع بصرك على عشرات أو مئات من ألواح قائمة على عُمُد مغروسة في الحقول ووجهها نحو الركاب فتقرأ عليها أسماء المحلات ، أو المعامل ، أو المصنوعات ، ولا سيما المشروبات والحلويات وأمثالها ، فإن أصحابها من أكثر الناس إنفاقاً على الإعلان . وإنما يفوز منها من يستلفت الأذهان إلى صناعته فضلاً عن إتقانها . ويقال أن أكثر المتاجر إنفاقاً في فرنسا أصحاب معمل «شكولات مينيه» وحيثما توجهت في شوارع المدن أو خطوط السكك الحديدية حتى المتاحف والمعارض ونحوها فانك تجد عليها اسم هذه الشكولاته ، وأصحابها ينفقون مليوني فرنك سنوياً على الإعلان وأرادوا مرَّةً أن يقتصدوا فقلّت مبيعاتهم فعادوا إلى الإنفاق .

ومن أغرب طرق الإعلان عندهم أنهم يكتبون اسم البضاعة على الحقول نفسها أو على الجبال بأغراس من الأعشاب بلون خاص يغرسونها على الرسم المطلوب كتابته فتنبت على ذلك الشكل . وقد تكون بعيدة عن الطرق والمنازل عدة كيلومترات فيراها الناس ويقرؤونها واضحة . ومن أساليب الإعلان أن يذكر اسم السلعة أو المشروب أو غيره على المراسح أو غيره في أثناء التمثيل على سبيل الاستشهاد أو الانتقاد أو غير ذلك ، ويدفع صاحب الإعلان على ذلك ثمنا .

ومن أساليب الإعلان أن يعرض التاجر بضاعته ويكتب على كلّ صنف ثمنه . فهذا يسهّل على الشاري الحكم في الابتياع أو عدمه . لكن أصحاب البضائع التي فيها درجات متفاوتة بأثمان متفاوتة يعلنون أنهم يبيعون الأداة الفلانية بالثمن الفلاني ويذكرون أرخص سعر عندهم فيتوهم الشاري إنه ثمن الصنف الجيد فيدخل للسؤال فيطلعونه على الأسعار ولا بد من أن يشتري .

الأزياء

ولا خلاف في أن باريس أسبق مدائن العالم إلى جمال الصناعة ولطافة

المصنوعات ، وهي التي ترسم للعالم الأزياء التي يجب اتباعها وقد يكون لسواهم أزياء لكنها السّابقة المتغلّبة . ولأهلها مقدرة كبرى على توليد الأزياء في الملابس وغيرها . وهناك طائفة من أهل الذوق الصناعي إنما يشتغلون بوضع الرسوم للأزياء الجديدة يستعينون على ذلك بما في المتاحف الصناعية من الرسوم أو المنسوجات القديمة فيركبون منها زيّاً جديداً يبالغون في تنقيحه وتدقيقه حتى يبلغ حدّه . ثم يعرض على أصحاب المعامل للنسج على منواله ، أو أصحاب المتاجر ليروّجوه .

وللفرنساويين مهارة خاصة في الزخرفة و إتقان المظاهر بغير التفات إلى متانة ما يصنعونه و طول بقائه بخلاف الإنكليز فإنهم إنما يهتمون بمتانة ما يصنعونه ولا يهمّهم ظاهره ، وهذا تابع لما اتّصف به هذان الشعبان من الأخلاق كما سنذكره في بابه . فالبضاعة الباريسية إنما يرغب الناس في ظواهرها أكثر مما في متانتها . واعتبر ذلك في أكثر معاملاتهم فإن ما تبتاعه بعشرة فرنكات من أسواق باريس ليس فيه من المادة الأصلية إلا ما يساوي فرنكين أو أقل والباقي ثمن ما ينفق في سبيل ترويجه من المظاهرات كإتقان المخازن ، والإكثار من الخدم ، والتنوير الكهربائي والإعلان وغير ذلك .

البور بوار «البخشيش»

ومن غرائب هذه الحضارة في فرنسا «البخشيش» نعني ما يُعطَى للخدم مكافأة على خدمة خاصة ، وهو عندنا لا يُعطَى إلا إذا كانت الخدمة خارجة عن واجبات الخادم التي يُنقد عليها الأجرة .

وأما عندهم فالبخشيش فرض واجب لا مناص منه ، ويسمونه في اصطلاحهم بور بوار pourbaire أي لأجل الشرب كأنه يطلب أن تعطيه فلساً يبتاع به قدحاً من البيرا أو الخمر . والبور بوار يُعطَى على الخصوص لِخدَم القهوات والأندية والمطاعم والفنادق ، وساقة المركبات ، وهو يقدر بنحو عشر المبلغ المدفوع ثمناً حقيقياً . فإذا دخلت مطعماً مثلاً ، ودفعت عشرة فرنكات ثمن الغذاء ، فالبور بوار لخادم المائدة فرنك . وإذا زادت المدفوعات قلت نسبة البخشيش عن عشرة في المئة ممّا لا ضابط

له . وفي ذلك مشقة على النازلين في الفنادق لأنهم لا يعرفون كيف يدفعون ، ولا لمن يدفعون فالخَدَمَةُ كثيرون . والغالب أن يُقسم البخشيش بين الفراش والبواب وخادم المائدة صاحب الرافعة «اسانسور» وغيرهم . وقد يكونون أكثر كثيراً ، ويختلف ذلك باختلاف الطبقات . فالداخل على مطعم فخيم يستقبله خادم يتناول منه القبعة والشمسية ، وآخر يقدم له كرسيّاً على المائدة وهذا يخدمه في تبديل ألوان الطعام ، فإذا نهض تلقّاه الخادم الآخر بالقبعة والشمسية ، وتقدّم آخر ففتح له الباب عند الخروج ، وآخر يفتح له باب المركبة عند الركوب ، فهؤلاء كلّهم ينبغي أن يدفع إليهم البور بوار – وقد يزيدون على ذلك .

وأصل هذه العادة الغريبة عندهم على ما نظن تزاحم الغرباء على أماكن اللهو في زمن لم يكن الخدم فيه يستطيعون القيام بما يلزم من الخدمة . فأصبح من يريد تعجيل حاجته مضطرّاً أن يسترضيَ الخادم بدفعة خصوصيّة له . وتكرّر ذلك حتى صار قاعدة . وأصبح خَدَمَةُ أماكن الملاهي يَعُدّون البور بوار من جملة استحقاقاتهم وبعضهم لا يتقاضى من صاحب القهوة أو المطعم أجرة . وفيهم من يدفع شيئاً من جيبه لصاحب القهوة ليأذن باستخدامه .

ومما يستلفت نظر المصري في باريس أنّك لا تجد في شوارعها متسوّلاً يعترض طريقك ، ولا متشرّداً مستلقياً على الشارع ولا غلاماً عارياً أو شبه عارٍ يتسلق الترامواي ، أو يعرض عليك خدمة من حمل حقيبة أو نحوها– لاشتغالهم عن ذلك بالمدارس .

ولا حاجة بنا إلى ذكر سهولة المواصلات ، والمخابرات عندهم كالتلغراف والتلفون والبريد ، فإنها مشهورة ، وعندنا أمثلة منها لكنها هناك أكثر شيوعاً . فالتلفون يكاد لا يخلو منه منزل أو متجر . وعندهم من طرق البريد ممّا لا مثيلَ له عندنا تذاكر ترسل مستعجلة في المدينة نفسها تتقاضى عليها مصلحة البريد ثلاثة أضعاف الأجرة المعتادة لكنّها توصلها سريعاً كالتلغراف ، وهي ما يسمونه «بنوماتيك» pnumatique وهي تذكرة تكتب فيها ما شئت ، وتعنونها ، وتضعها في عين من صناديق البريد خاصة بهذه التذاكر ، وعمال البريد يتفقدون هذه العيون كلَّ مدّةٍ قصيرة فإذا وجدوا فيه تذكرة أسرعوا في إيصالها حالاً ، وهي ترسل عادة بضغط الهواء في أنابيب ممتدة

لذلك تحت الأرض .

نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كلّ بلد ، وإنما يختلف في تفاصيله باختلاف الأعصر والأقاليم . فالهيئة الاجتماعية في أبسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فإذا ارتقت نشأت فيها المدارس والجمعيات الأدبية ، والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدنيّتهم وسائر أحوالهم . فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب ، وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا إلى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم الملكي المطلق –الأب رئيس العائلة يستبدّ في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء بمن شاء ويعهد إلى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو إقامة– لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدّل هذا النظام بعد دخولنا في المدنيّة الحديثة فأخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت اقرب إلى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الأمم والأديان .

وبناء على ما للأقاليم أو البيئة من التأثير في أبدان الناس وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الأقاليم أوجب اختلافَ الأمم في كلٍّ ، فلننظر في طبائع الأمة الفرنساوية على الأجمال .

طبائع الفرنساويين

الفرنساويّ عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمّة . ولا سيما أهل الزراعة منهم فإنهم قويّو الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط . ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصنّاع، وسائر طبقات الناس ، فإنهم نشيطون في ذهابهم وإيابهم في كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم– فإن أحدهم ينزل من القطار

ويحمل حقيبته «الشنطة» بيده فإذا كان منزله قريباً سار إلى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على أنهم إذا طلبوا غلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيبة في أثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة يشترك فيها أهل أوربا كافّة . ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فإذا رجع إلى بلده عاد إلى طبعه . إلاّ إذا توطن أوربا طفلاً- ومرجع ذلك إلى طبيعة الإقليم . والفرنساوي ذكيّ الفؤاد . سريع الخاطر . حاضر الذهن . فصيح[1] خفيف الروح فيه ميل إلى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة .

الجمال

وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه أمة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فإنهم قدوةُ الأمم في الأزياء على اختلاف أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له إلاّ الذوق . وهو على أرقى درجاته في باريس . تجد المرأة القبيحة الخلقة تتزيا بزيٍّ يناسبها ، وتصفف شعرها تصفيفةً تناسب ملامح وجهها ؛ فتظهر جميلة . ولهم في تصفيف الشعر ، واختيار شكل البرنيطة ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ، ولونه وشكل الأنف والعينين والجبهة والفم ، وغير ذلك فيوفّقون التصفيفة «التوالت»[2] والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلاً

ويتبع ذلك ميلهم إلى تزويق الحديث ، فإنه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفّقون بين تصفيفة الشعر ، وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلاً ، فهم أيضاً يحسنون الحديثَ حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له . لكنه لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل إلى إتقان الظواهر أكثر ممّا إلى إتقان البواطن ، وهو من قبيل حبه الجمال . ويخالفه الإنكليزي في ذلك كما سنبيّنه

(1) وردت منصوبة ، وصوابها ما أثبتناه .

(2) هي ما ندعوه اليوم التسريحة .

في مكانه . ومن قبيل ميلهم إلى الجمال واقتدارهم على توليده ما نجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يُراد بها التحسين . أي أن تظهر السلعة المعروضةُ أحسن ممّا هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهات لإيهام الناس أنها أكبر ممّا هي . وإذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانه من المرايا فيظهر أضعاف ما هو .

الاقتصاد و الترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته ، وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى ، فإن أصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل وأولاده يشتغلون كلٌّ على قدر طاقته وحسب ميله . ولابدّ لكل منهم إن يقتصد شيئاً من ربحه مهما كان قليلاً فيحتفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس أهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفلاح الفرنساوي بسيط في لباسه وأخلاقه ، ومهما يكن من فقره فإنك تجدهنظيف الثوب ، نظيف الفراش ، يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستنكف إذا دخلت بيته من أن تجلس على مقعده ، وتأكل من طعامه ، وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل إلى إصلاحه إلاّ بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبّرة لكل ذلك .

معرفة الواجب

ومن الخلال الحميدة الشائعة في معظم أوروبا ونحن في حاجة إليها «معرفة الواجب» وهي تشمل كلّ أعمال الإنسان . نعني أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث أو إرهاب أو ترغيب -لو فعل ذلك كل إنسان لاستغنى الناس عن الحكومات وأبطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون قي هذا الباب وأكثرهم شعوراً بالواجب أقربهم من المدنية والارتقاء . وهو يستلزم الأمانة وهي أساس المعاملات وأكبر أسباب النجاح- ما أجمل أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤدّيه بلا وازع أو مراقب . والفرنساويون من أكثر الأمم شعوراً به ، وكذلك الإنكليز . وربما ظهر

الإنكليز أكثر قياماً بالواجب ؛ لأنهم يعملون كثيراً ويقولون قليلا . وأما الفرنساوي فميله إلى زخرف الكلام يُظهر أعماله قليلة . لكن الشعور بالواجب قوي في كليهما .

ذكرنا في غير هذا المكان أن قومساري الترامواي لا رقيب عليهم «مفتش» ، وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين أو قبض الثمن بدون أداء التذكرة ؛ لأن القومساري الفرنساوي أو الإنكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفوليته أن يعرف ما له فلا يطمع بسواه . ولو أراد السائق أن يطمع فإن الشعب أرقى من أن يتساهل في هذا الأمر ؛ لأنه تربى تربية راقية وعرف ما له وما ليس له ، ويعلم أن تساهله مع القومساري في أمر التذكرة إنما هو مشاركة له في السرقة . ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك ، وبعضهم يحرض القومساري على السرقة . والسبب في ذلك ضعف أخلاق العامة عندنا . وإن مثل الترامواي هذا على بساطته يدل على أخلاق العامة .

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الأمانة المبنية على معرفة الواجب ، وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة أن بعض باعة الجرائد في فرنسا وإنكلترا يضعون أعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج الحانوت ، وبجانبها علبة . فمن أراد أن يبتاع جريدة وضع ثمنها في العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه . وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن . وقس على ذلك الثقة المتبادلة في سائر الحرف .

دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس . وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بأن النقود الفرنساوية لا تقبل عندهم . ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية . فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة له ريثما نعود وقد بدلنا النقود . فأعاد الليرة ليدنا وقال «دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك» وكانت هذه أول مرة رآنا فيها الرجل . أليس ذلك من الأخلاق الراقية؟ أن صاحبها يتصوّر رجلاً عليه حق لا يبادر إلى دفعه من تلقاء نفسه . ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الأخلاق الضعيفة ولكنهم أقلّ ممّا عندنا كما أنّنا لا نعني ضعف الثقة

عندنا في كلّ الطبقات . وإنما نريد الأغلبية .

ومن جميل ما نحسدهم عليه معرفة قيمة الوقت ، وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً . فإنهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يقصّرون بما عليهم ، ولا يضيعون أوقات أصدقائهم بالزيارة الحبيّة كما يفعل كثيرون عندنا فإن بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل له ، ويعلم إنك مشغول فلا يختصر زيارته ، ولا أنت تجرؤ على الاعتذار منه لئلاّ تُتَّهم بالفظاظة ، ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية .

وأعتبر ذلك في صدق المواعيد ، فإنه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلّمين .

لا يعنيني

ومن الأخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كلّ منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرّض أحد إلى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدائن العالم . وتجسس الأخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرّغ أهلها للأحاديث ، ولأنهم مطّلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض . وكلّما اتسعت المدينة قلّت تلك العادة فيها ، ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعدا عنها . فإن أحدهم يمشي وهمّه نفسه ولا يلتفت إلى سواه . أو يجلس في القهوة ولا يلتفت إلى جليسه من هو . وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمُّه ذلك . وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما الفرنساوي فيتحمله ولسان حاله يقول «لا يعنيني» ولكنه مع ذلك جنوح إلى النجدة وفيه أريحية إذا استحثّته على مَنْقَبة[1] اندفع إليها بكلّيته ولو جرّه ذلك إلى خسارة أو حمّله مشقة .

---

(1) المنقبة : الفعل الكريم .

المفاخرة بالرجال والحرية

ومن سجاياهم أنهم يفاخرون برجالهم ، ويعظّمون النابغين منهم . وحيثما مررت بشوارع باريس تجد تماثيل العظماء منصوبة في تقاطع الطرق ، أو واجهات القصور ، أو في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تمثالاً كبيراً للقوّاد ، والملوك والكتّاب والشعراء والفلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الأمم الأخرى مثل دانتي شاعر الإيطاليين ، وواشنطون محرر أميركا وشكسبير الشاعر الإنكليزي ، وغريبالدي القائد الإيطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية أو الاتحاد أو نحوهما . وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمراسح والمدارس والكنائس والمنازل وهي عديدة جداً . وأكثرها شيوعاً تمثال بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتماثيل تثير في النفوس الحماسة والميل إلى الاقتداء بأولئك العظماء . وهي وسيلة حسنة لاستنهاض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا–إلا قليلاً .

ويمتاز الفرنساويون عن سائر أهل أوروبا بالنزوع إلى الحرية على اختلاف أوجهها . وقد مرت أجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بأيدي طلابها وينصرونهم بالمال والرجال . وأشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للأميركان في طلب الاستقلال من سلطة الإنكليز . ومن قبيل تعشّقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض الجماعات الدينية . لكنهم تطرّفوا في ذلك حتى خرجوا به إلى عكس المراد بالمدنيّة . ففترت الحاسّات الدينية ، ونزع الناس إلى الشكّ في الدين ، وآل الأمر في بعض الأحوال إلى فساد الآداب . لأن العامة لا تستغني عن وازع دينيّ يصلح من آداها . ومن أكبر أسباب الفساد إلقاء الشكوك الدينية في أذهان الناس .

طعامهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من أكل اللحوم في طعامهم ، وهو شأن أكثر سكان أوروبا وخصوصا في البلاد الباردة لاحتياجهم إلى المواد اللحميّة في مقاومة البرد . ولهذا

السبب أيضاً يُكثرون من شرب الخمور ، وتكاد لاتجد بينهم من لا يشرب الخمر على المائدة رجالاً ونساءً وأولاداً . وكثيراً ما يجرّ ذلك إلى إدمان المُسْكِر ، فكثر المدمنون عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمّال والصنّاع . أما شرب الخمر الاعتيادية فإنه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنساويين مشرقة أو مشربة حمرة -ولا يدلّ ذلك على الصحة دائماً ، وقد يدلّ على المرض . وترى صاحبه يميلُ إلى النعاس بعد الطعام ويظهرُ ذلك في ساقة المركبات بباريس . لأن أحدهم إذا لم يكن سائقاً مركبته لا تراه إلاّ نائماً على كرسيّه ورأسُهُ مُتَدلٌ على صدره ، وقد احمّرت وجنتاه وانتفخت أوداجُهُ . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة إلى تلك البلاد . ولكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسميا . على أننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بأمكنة يعرفها طالبوه .

بقي علينا النظر في أمرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم نعني طبقة العامة والمرأة .

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي أن تكون الأمة مؤلفة من طبقات ترجع إلى طبقتين : الخاصة والعامة ، ويختلف حال كلّ منهما باختلاف الأمم والأعصر وإن تشابها على الإجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ، ويكون العامة تابعين لهم في أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها .

فالعامة في التمدّن القديم كانوا كما قال الإمام علي «همج رعاع أتباع كل ناعق» وقال معاوية : «إنهم أشباه البهائم إن جاعوا ساموا وإن شبعوا ناموا» وهم نحو ذلك في الشرق إلى الآن إلاّ في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تغيّرت أحوالهم حتى أوشكوا أن يقلبوا نظام الاجتماع ولا سيما في البلاد الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب .

إنّ العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بأمور كثيرة : منها أنهم أرقى تربية ، وأوسع تعلّماً فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجّهت ترى البوابين وساقة المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل و القهوات حتى مسّاحي الأحذية يطالعون الجرائد والكتب ، ويهتمّون بالشؤون العامة ويبحثون في السياسة ، ويتناقشون في التعليم والأحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك «حقوق»[1] فإنه عام في كل بلدة وقرية ؛ فتنبهت الأذهان وتفتحت الأعين وتعلم العامي معنى الاجتماع والاتحاد ، وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كلّ شيء في أيدي العامة لأنهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والأمراء . فتشكلّت الأحزاب من العامة ، وارتقت نفوسهم . ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الأموال «الخاصة» عن كثير من العمال فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا إلى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية ، واحتياج النواب إلى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية ، وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوّتوا له . فازداد العامّة نفوذاً وطمعاً ، وأكثروا من الاعتصاب حتى اتعبوا أصحاب الأموال وحمّلوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لأنها آلت إلى ارتفاع الأسعار .

فالحرية التي نالها العاميُّ الفرنساوي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرّت به وبالأمة من جهة أخرى . لأنّ العامي مهما بلغ من ارتقائه لا يبرح قصيرَ الإدراك ، وإنما يتدرّب على الاجتماع والصّياح مع الصائحين فينحاز إلى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطّن وإدراك وإنما هو يُساق بعواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعاميُّ الفرنساوي مُدمن للمسكر كما تقدّم . أضف إلى ذلك حدّةَ مزاجه فإذا ضربت له وتراً حساساً كالدين أو الوطنية أو غيرها اندفع لِما تُريده منه . فالغلَبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لأغراضهم بالفصاحة أو نحوها .

(1) كذا وردت في الأصل ، والعبارة ناقصة ، والمقصود من السياق أن العامة مطلّعون على حقوقهم عارفون بواجباتهم .

والنفوذ الحقيقي للخاصة لأنهم أقوى عقولاً وأكثر وسائل -ذلك هو شأن الجماعات في كلّ بلد : يختصم الخاصّةُ على السيادة أو الكسب ؛ فيستنصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الأساليب فينصرونهم ، وينفّذون أغراضهم ، والعامة يتوهّمون أنهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم . مهما بلغ من رقيّ العامة وحريتهم فالخاصّةُ هم أصحابُ السيادةِ الحقيقية ، وهم كالأوصياء على العامّة يسنُّونَ لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدرّبونهم في شؤونهم السياسيّة والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فإنّ الحكومة الفرنساوية تهتمُّ بها كثيراً ، وقد فرضت على العامل أن يرتاح يوماً في الأسبوع فإذا لم يفعل عُدَّ مذنباً . وإذا كان عمله لا يأذن له بالراحة كخدمة المطاعم والقهوات ونحوها ، دبّرت الحكومةُ وسيلة تمكّنه من الراحة . وذلك أنها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يوماً من الأسبوع يرتاح فيه ، وعيَّنت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على أجرته . وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض . فبهذه الواسطة يشغّلون سُبْعَ العمال ويُريحون جمهورَهم . لكنَّ بعضَ العمال يشتكون من هذه المعاملة لأنها تُضيِّع عليهم سَبْعُ دخلهم ، ولأنهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل . وللإنكليز عناية مثل هذه أو أشدّ منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها في مكانها .

المرأة في أوروبا

كانت المرأة في الأعصُر المظلمة بأوربا وغيرها مرذولة محتقرة تُعَدُّ من قَبِيل المتاع ، وكان للرجل أحياناً أن يبيعَ امرأته بالمزاد العموميّ . وتفنَّنَ الكتّابُ والشعراء في هجائها وانتقادها . وتباحث اللاهوتيون طويلاً في «هل للمرأة نفس» وزعموا أنها «باب جهنم» و»معمل أسلحة الشياطين ، وصوتها فحيح الأفاعي» وإنها «نبال الشياطين» و»سامّة كالصِّلّ ، وحقودة كالتّنين» وقال الشاعرُ العربي :

إنّ النســـاءَ شـــيـــاطينُ خلقنَ لنا
نعـــوذُ بالله من شـــرّ الشـــيـــاطين

فلمّا بزغ نورُ التمدين الحديث ، وتحوّلت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد إلى

الاختبار والدرس كان في جملة ما همّهم «المرأة» فأدركوا خطارة[1] مركزها في الهيئة الاجتماعية وأنّ النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها . لأنها قوام العائلة ، ومربية الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة . فقدّموها وعلّموها ورفعوا منزلتها ؛ فقامت تطالب بحقوقها . واختلف الكتاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة وإجلالها حتى مثّلوا بها الفضائل والمفاخر ، فإذا أرادوا تصوير الحرية مجسّمة نحتوا لها تمثال امرأة . وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فإنهم يمثلونها بصورة امرأة . والفرنساويون من أكثر الأمم احتراماً للمرأة .

المرأة الفرنساوية

أخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة ، وأطلقوا سراحها ، واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ما له وما عليه . فبرزت من خدرها ، وتعاطت أعمال الرجال ، وسابقتهم في كثير من أعمالهم ؛ لأنها أقلّ أجرة من الرجل فكثر استخدامها في ما تستطيعه من المناصب والمهن . فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخادمات في المنازل وكاتبات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالمحاماة والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معمال الكيمياء والبكتريولوجيا ، وغير ذلك . وأنشأنَ الجمعيات العلمية والأدبية والأندية الاجتماعية . وألفن الأحزابَ السياسية للمطالبة بحقوقهن . وتعاطين كثيراً من الصنائع الحقيرة ، أو المتعبة فمنهن غارسات في الحقول ومنظّفات في الشوارع –حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهنّ تسوق مركبة بالأجرة في شوارع باريس فأدهشنا ذلك ، فأخبرنا صديق كان معنا في أنّ في باريس 12 سائقة مثل هذه ، والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم أنّ الفتاة الفرنساوية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام ، ويطلب منها أن تتكسّب بالشغل كما يتكسّب هو . وهي تجالس

---

(1) كذا وردت ، والصواب : خطورة .

الرجل وتحادثه وتباحثه في كلّ موضوع كأنها رجلٌ مثله وتسافر للسياحة والاستكشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً أو غرابة ممّا لم نألفه في بلادنا . فإن فتاتنا تتعلّم أو لا تتعلم ، ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ، ولا يخطر لأهلها أن تعمل عملاً . فهي إمّا أن تتزوج أو تبقى عانساً في بيت أبيها ولا تشتغل إلاّ نادراً . وأكثر اشتغالها بالتعليم أو الخياطة ويندر أن تتعاطى عملاً آخر . ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها .

أمّا الإفرنجية فحالما تخرج من المدرسة تمضي إلى السوق كما يمضي الشاب ، فإذا أتاها النصيب تزوجت ، فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها . وإلاّ فإنها تشتغل هي أيضاً . ولا يخفى ما ذلك[1] من تضاعف الأيدي العاملة في الأمة الفرنساوية أي أن العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة إلى عدد السكان . والمرأة الفرنساوية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها ، وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى إلى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه آخذ في الامتداد ، ويخشى أن يجرّ إلى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس أمّ المدائن الجميلة .

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ، ونحسد الفتاة الإفرنجية على تعلّمها وحريتها ، فلما رأينا حالها في باريس انقلبت شكوانا ، وكدنا نرضى بالحجاب والجهل – إنهم أساؤوا إلى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة . أرسلوا المرأة إلى الأسواق تخالط الشبان وتبايعهم وتساومهم وتعاشرهم ، وهي ضعيفة حسّاسة ؛ فتعرضت لمفاسد كثيرة . وأغراها الشبان بالمال فخدعوها . فلمّا خرجت من صفّ الحرائر خدعتهم . ثم آل أمرها إلى ضياع العمر في الشوارع والأزقة لا تجد رزقاً إلا باستهواء الشبان . وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يُعرفن ببنات الرصيف . أما هناك فإنّهنّ ألوف ، ولا تكاد تخلو منهن حديقة أو منتزه أو شارع ، ولا سيما في أثناء الليل ولا حرج عليهن بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنساوية تُبيح

---

(1) كذا وردت ، وأحسب الصواب ما في ذلك .

الفحشاء على شروط وضعتها وقوانين سنتها . فأباحت للمتّجرين بالأعراض أن يبتنوا المنازل والقصور ، ويحشدون فيها الغواني أصنافاً وألواناً يعرضونهنّ عرض السلع أو الأثاث بلا عيب ولا حياء . ولهم سماسرة في أيديهم شهادات من الحكومة تخوّل لهم معاطاة[1] تلك المهنة . ولهذه الطبقة من المتهتكين مجالس وأندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة . وليس ذلك جائزاً في إنكلترا . ولكن مصر اقتدت فيه بالفرنساويين كما اقتدت بسواه من أسباب تمدّنهم . وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ، ونعرض عن القبيح الضار .

الإرساليات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس أن من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي يعرف بالحي اللاتيني Quartier Latin فيه أكثر المدارس العالية التي ترسل مصر إليها شبّانها ليتلقّوا فيها الحقوق والطب أو غيرهما . ولا مندوحة لهم عن الإقامة هناك ، والتعرض لتلك الأخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا ينجو من ذلك الخطر إلاّ قوي الإرادة ثابت العزيمة . ولكن الإنسان ضعيف ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة إلاّ محتجبة ، وهو في بلده بين أهله ومعارفه يمنعه الخجل من مخالطة غير المحتجبات . أما في باريس –وكلّ شيء فيها مباح– فانه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجاً «غير مطهرة» ذكراً وأنثى بلا حرج ولا خجل يتداعبون ويتغازلون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ، ويحبّبها إليه باسم الحرية فإذا أحجم عيّره بالضعف . فهل يلام أولئك الشبان على السقوط؟ وإنما اللوم على الذين يرسلونهم إلى تلك المدارس . وإذا كان لابدّ للحكومة المصرية ، أو الآباء من إرسال أبنائهم إلى مدارس فرنسا فمن الخطأ إرسالهم إلى باريس وتعريضهم لتلك الأخطار .

(1) ممارسة .

على أن هذه الطبقة من النساء ليست كلّها من أهل تلك العاصمة ، فإن فيهنّ كثيرات من أهل الأرياف الفرنساوية أو من خارج فرنسا . وبعضهنّ من روسيا وألمانيا وغيرهما . ويندر بينهنّ القادمة إلى باريس بقصد العهارة . وإنما يفد أكثرهنّ إليها للارتزاق ببعض المهن ؛ فيتعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ، ويعينهن الفقر على الوقوع فيها ، لأن البائعة في مخزن أجرتها فرنكان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام اللباس والمنام يقع نظرها كلّ يوم على عشرات من شبيهاتها في الخلقة أو أقل منها جمالاً ، وكلّ منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الأقمشة ، وزيّنها بأجمل الحلي . فإذا قويت هذه البائعة المسكينة على محاربة الحسد ، فإنها لا تقوى على مدافعة من يتعرّض لها من أولئك الشبان الذين يُغرونها بالمواعيد العريضة . ويتحبّبون إليها بإطراء جمالها وشكوى الغرام ، وغير ذلك فتقع في الشراك . ولا يعاشرها ذلك المغرم إلاّ مدة ثم ينتقل إلى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الأولى ، ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها!

فالعلّة الأصليّة في شيوع التهتك بباريس ، إنما هو إطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل ، وتكليفها الارتزاق مثله ، وإباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك أنّ الفتور الديني شائع في فرنسا حتى أصبح شبانها يعدّون العهارة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذّ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها . فيغرون المرأة على ذلك فتطيعهم . وليس أقبح من فتور المرأة في الدين ؛ لأنها أقرب إلى التقوى من الرجل ، وأكثر تعفّفها من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقيقة الإحساس سريعة التأثر ، فإذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خِيف عليها السقوط إذ ليس لها ما للرجل من قوة الإرادة . ومع ذلك فإنّه أكثر سقوطاً منها لكنّ الناسَ لا يُعيبون سقوطه كما يعيبون سقوطها – وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع .

في شوارع باريس ألوف من الفتيات لولا هذه الأسباب لَكُنّ أمهاتٍ وربّاتِ عائلات يربّين أبناءهنّ رجال المستقبل على الفضيلة بدلاً من ضياع شبابهن في الرذيلة ، ويضيع معهن ألوف من الشبان بلا عقب . لأنّ هذه الإباحة من أكبر أسباب

العقم في فرنسا إذ يمسك الشبان عن الزواج تخلّصاً من متاعبه وهمومه ، واكتفاءً بملاذّه الوقتية بثمن قليل لا مسؤولية بعدها ولا تعب . فلا نبالغ إذا قلنا إن فرنسا بين يدَي خطرٍ اجتماعي يهدّدها ، ولا تخرج منه إلاّ بعد انقلاب عظيم .

بلغ عدد اللُّقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر ألفاً لا يُعْرَفُ آباؤهم ، فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الإفراط في الحرية والفتور في الدين . إنّ الجهل والحجاب يضرّان المرأة ، ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية ، لكنّ الحريةَ الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الإنساني وتضر بالعائلة . وحال فرنسا الاجتماعي أكبر شاهد على ذلك لأن إحصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة ولم تبق أمة لم يتضاعف إحصاؤها في أثناء هذه المدة .

خلقت المرأة أُمّاً تدبر العائلة وتربي الأولاد . وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشؤون العائلية . وأما تكليفها بأعمال الرجال فإنه خارج عما خُلقت له – إلاّ إذا اضطرت إليه لأسباب قهرية . ولكننا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كلّ عمل يعمله الرجل ، وأن تتعاطى كلّ صناعة أو مهنة لأنها مساوية له . وبعضهم ألّف كتباً في هذا الموضوع خلاصتها أنّ المرأة يجب أن تعمل كل أعمال الرجال من صناعة أو علم أو تجارة أو زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الأيدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الإنساني . إذا نزل الرجل والمرأة إلى السوق من يربي الأطفال و يدربهم ويُعنى بأحوالهم؟ فإن قيل إنّ المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا : إن الطفل لا تربّيه إلاّ أمه . وإذا فرضنا قيام الخدم مقامها ، فالنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتها .

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاستكشاف والاختراع فإنه لا يقوى على قلب نظام[1] . وهذا النظام يقضي على الأم أن تربّي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وأن يكون هو أهم مشاغلها مع تدبير بيتها وليس ذلك بالشيء اليسير . إنّ القيام بشؤون العائلة لا يقلّ أهمية عن أعظم عملٍ من أعمال الرجال في التجارة أو السياسة أو الصناعة أو غيرها .

---

(1) كذا وردت ، وأحسبُهُ أراد : نظام الأمومة .

الخلاصة

في مدنيّة فرنسا وغيرها من مدنيات أوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها . ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها . فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

1 معرفة الواجب .
2 المحافظة على الوقت وصدق المواعيد .
3 تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة .
4 تعليم المرأة وتثقيفها .
5 ترقية التعليم والتوسع في الآداب .
6 العمل والجد .

أمّا ما يجب علينا تجنّبه من أدران تلك المدنيّة أهمه :

1 الإفراط في الحريّة واستخدامها في غير موضعها .
2 ما يخالف الحشمةَ الشرقية . على أن نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا .
3 الفتور في الدين والمجاهرة في الكفر ؛ فإنه من أسس ذلك الخراب .

وسنتكلم عن متاحف فرنسا وآثارها فيما يلي

آثارها

المراد بالآثار عادة ما يتخلّف عن الأمة من الأبنية والتماثيل وغيرها من المصنوعات المحسوسة الدالة على عظمتها أو مهارتها كالآثار المصرية واليونانية والرومانية . ولكن للأمة آثاراً معنوية تتناقلها الأمم عنها وتقلدها فيها ، فيكون لها أثر حي في تمدنها ونظام اجتماعها ، أو علومها وآدابها فيذكرها لها التاريخ . كما نذكر أحرف الهجاء للفينيقيين والأدب والفلسفة لليونان والشريعة للحامورابين واليهود ، والقواعد السياسية والحربيّة للرومان ، ونهوض أمم الشرق للعرب . فآثار الأمة

الفرنساوية معنوية ، أو محسوسة .

آثار فرنسا المعنوية

فآثار فرنسا المعنوية في هذه المدنيّة كثيرة منها :

1. الحرية واستقلال الفكر : إن للفرنساويين الفضل الأول في نشر روح الحرية بأوربا وغيرها . وهم قدوة الأمم في بثّ هذه الروح على أثر نهوضهم لخلع نير الملكية والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة .
2. استخدام اللغة الفرنساوية في المخاطبات الرسمية بين الدول المتمدنة . فإنه من آثار نفوذ الدولة الفرنساوية في العالم المتمدن .
3. الألفاظ الفرنساوية السياسية والعلمية والأدبية في لغات أوربا فإنها من أدلة تفوّق الفرنساويين في هذه الشؤون واقتباس تلك الأمم عنها .

فضلها على الشرق

لفرنسا فضل خاص على الشرق الأدنى من أوجه كثيرة تظهر آثاره في أخلاق أهله وآدابهم . إذ لم يكن لهم علم بأسباب المدنية الحديثة قبل أواخر القرن الثامن عشر إذ حمل عليه بونابرت يريد اكتساحه كما اكتسحه الإسكندر قبله . لكنه لم يأته بالعدة والسلاح فقط بل نقل إليه بذور التمدّن وأصول المعارف . فأرفق حملته الحربيّة بحملة علمية جمعت نخبة علماء فرنسا في ذلك الحين . لم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية ؛ فعاد على أعقابه وظلّت تلك البذور كامنةً حتى نهض من رجال الشرق من أحسن تعهُّدها وتربيتها ؛ فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالسوريون والمصريون والأتراك والفرس لمّا همُّوا بهذه المدنية كان معظم تعويلهم في اقتباسها على الأمة الفرنساوية . فتعلّموا لغاتها[1] وترجموا علومها ، وقلدوها بآدابها

---

(1) كذا وردت والأصح لغتها لأن للفرنسيين لغة واحدة .

وعاداتها وأخلاقها - كذلك فعل المصريّون على يد محمد علي[1] بأوائل القرن الماضي ، فإن الإصلاحات التي أحيا بها القطر المصري كان أكثر تعويله فيها على الفرنساويين . استخدم جماعة منهم في التعليم والتنظيم . مثل المسيو جو مار المهندس الفرنساوي الذي أرشده في الإرساليات العلمية إلى فرنسا . والدكتور كلوت أنشأ له المدرسة الطبية ، وسليمان باشا «الجنرال سيف» نظّم له الجندية ، ولينان باشا هندس القناطر الخيرية . وهناك عشرات من رجال العلم والأدب الفرنساويين استخدمهم محمد علي في نهضته . ونقل كثيراً من الكتب الفرنساوية إلى اللغة العربية . واقتبس طرق الفرنساويين في المدارس والجندية وفي الزراعة والصناعة وغيرها .

واقتدى به خلفاؤه على العرش الخديوي ولا سيما إسماعيل فإنه استخدم كثيرين منهم في الإدارة والتعليم . وأشهرهم ماريت باشا مؤسس المتحف المصري . ولا يزال هذا المتحف في عناية الفرنساويين إلى اليوم .

والفرنساويون أول من أنشأ جريدةً بمصر «فرنساوية» ، وهم أول من أسس مجمعاً علميّاً فيه « institut » وأول من نقل إليها أدوات الطباعة- نعني المطبعة التي أتى بها بونابرت في حملته وكان يطبع عليها منشوراته وأوامره بالعربية . فلما أراد محمد علي أن ينشئ المطبعة الأهلية كانت تلك المطبعة أساساً لعمله .

واعتبر ذلك أيضاً في سوريا ، فإن للفرنساوين شأناً خاصاً فيها ؛ لأنهم دخلوا في شؤونها منذ بضعة قرون ، ولا يزال السوريون حتى الآن يقلدون فرنسا في أسباب هذه المدنية ، وقد نقلوا أهم آدابها إلى العربية . وقلّدوا شعراءها وأدباءها ، وبعضهم يعرف عن تاريخ آداب اللغة الفرنساوية أكثر ممّا يعرف عن آداب اللغة العربية - إلاّ التمثيل ، فإن مارون النقاش اقتبسه عن الإيطاليان ، لكن من جاء بعده عوّل في إتقانه على الفرنساويين .

ولمّا نهض الأتراك في الأستانة لاقتباس المدنية الحديثة كان أكثر اعتمادهم في

(1) هو محمد علي باشا مؤسس السلالة الخديوية في مصر .
(1849 - 1769) تولى الحكم سنة 1805 ، وحقق لمصر نهضة شاملة .

نقل الآداب الحديثة على الفرنساويين . فنقلوا عن روسو ، ومونتسكيو ، وهوغو[1] وغيرهم . وأكثر الأفكار الحديثة التي اقتبسها الشرقيون في القرن الماضي أخذوها عن الأدباء الفرنساويين .

وهكذا فعل الفرس لمّا أخذوا في نهضتهم بأواسط القرن الماضي ، فإن ناصر الدين شاه أرسل سنة 1854 أربعين شاباً من أدباء الفرس وأهل العصبية إلى فرنسا لتلقي العلوم كما فعل محمد علي قبله . وعاد هؤلاء إلى بلادهم ، وعملوا على نشر العلم بإنشاء المدارس على اختلاف مواضيعها . وهكذا فعل أيضاً في تنظيم الجند فإنه النظام على النمط الفرنساوي ، وبعث إلى فرنسا 20 ضابطاً تخرجوا فيها على ذلك النظام .

آثار فرنسا البنائية

أما الآثار البنائية في فرنسا فإنها لايمكن حصرها ، وإنما نقتصر على ما شاهدناه منها في باريس وليون . وهو كثير يدخل فيه القصور والجسور والميادين والكنائس والمراسح والأضرحة نكتفي بفذلكة عامة ونخص بالوصف أهمها ، فالكنائس في باريس عديدة تزيد على 70 كنيسة أشهرها نوتردام . وهي كنيسة قديمة العهد أعيد بناؤها في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ، ثم جُدّدت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم يتم بناؤها إلاّ في منتصف القرن الثالث عشر مع إضافات وتجديدات لحقت بها بعد ذلك . وأجمل ما فيها من حيث فن البناء واجهتها ، تم بناؤها سنة 1240 .

مساحتها 130 متراً طولاً في 40 متراً عرضاً و35 متراً علوّاً قبتها قائمة على 75

(1) جان جاك رسو (1721 – 1778) كاتب فرنسي وفيلوبيف اجتمعي ، ومونتسكيو : كاتب فرنسي من أبرز مؤلفاته "روح الشرائع" الذي كان له كبير الأثر في تطور الدستور الفرنسي إبان الثورة (1689 – 1755) . أما فيكتور هوغو (1802 – 1885) فهو شاعر وكاتب فرنسي من أعلام الحركة الرومنتيكية الإبداعية) في فرنسا .

سارية كبيرة أكثرها مستدير الشكل رومانيه . والمنبر في الصدر قائم على 108 أعمدة صغيرة متقنة الصنعة والنقش . وفي أرض الكنيسة وجوانبها عدد كبير من الأضرحة للمشاهير ، ولا سيما أساقفة باريس . وأهم ما في هذه الكنيسة ممّا يهمّ القراء الاطلاع عليه خزانة تحفها . وهي غرف بنيت سنة 1850 فيها تحف أكثرها حديث ليس له أهمية فنية وإنما أهميتها بانتسابها إلى مُهديها . منها كأس مقدس من الذهب أهداه نابليون الثالث للكنيسة . ومن التحف القديمة صندوق منقوش ينسب للقديس توماس بيكت على طرز القرن 13 ومن الآثار التاريخية الصليب المذهب الذي حمله القديس فنسان دي بول قرب فراش لويس الثالث عشر وهو يحتضر . والرداء الذي اتشح به نابليون بونابرت عند تتويجه . ولكنيسة نوتردام برج علوه 69 متراً .

كنيسة لافوفير في ليون

ورأينا في ليون كنيسة قديمة العهد تعرف بكنيسة نوتردام دي فوفير يحج إليها الناس من أطراف العالم المسيحي بأوربا . قائمة على تل علوه 297 متراً يصعدون إليها بتراموای كهربائي يُجرّ بالأسلاك الغليظة يرجعون بتاريخ بنائها إلى القرن التاسع . ثم تجددت مراراً آخرها في أواخل القرن الماضي . وقد احتفظوا بكثير من البناء القديم . طول الكنيسة من الداخل 66 متراً في عرض 19 متراً ، وإنما استلفت نظرنا ما على جدرانها من الصور الكبيرة المرسومة بالفسيفساء طول الواحدة بضعة أمتار في مثلها عرضاً مرسومة في الأجيال الوسطى . منها صورة معركة بحرية جرت سنة 1571 في مضيق لبانت قرب كورنثية[1] بين أسطول السلطان سليم الثاني العثماني وأساطيل أسبانيا والبندقية وجنوى ومالطة والبابا بيوس الخامس . وهي معركة شهيرة في تاريخ الدولة العثمانية انتهت بفشل العثمانيين . كانت العَمارة[2] العثمانية مؤلفة من 300 دارعة بقيادة القبودان موذن زاده علي باشا . والعمارة المسيحية مؤلفة من 79 دارعة

(1) مرفأ في جنوب اليونان ، من مدن اليونان التاريخية ، فيه آثار هامة من أهمها هيكل أفولون .

(2) العمارة بفتح العين : مجموعة من السفن الحربية .

بقيادة دون جوان دوتريش و12 دارعة للبابا بيوس بقيادة مارك أنطوان كولونا و14 دارعة بقيادة فانيرو البندقي . غير الجند الأسباني . ولما التقى الجيشان في ذلك المضيق تبادلوا إطلاق المدافع فأصيب القبودان العثماني بقنبلة قتلته ففشل جنده . وتوقف العثمانيون عن مواصلة الفتح غرباً كما توقّف العرب عن الإيغال في أوربا بعد واقعة بواتية التي غلبهم فيها شارل مارتل قبل ذلك بثمانية قرون .

وقد مثل المصور تلك المعركة وفيها سفن لجيشين ومواقعهم حتى انتهت باحتراق سفن العثمانيين . وكلّ ذلك بالفسيفساء الملونة ولاتزال واضحة مع أنها صنعت منذ نيف وثلاثة قرون .

وهناك صور أخرى مثل هذه تمثل بعض الحوادث الدينية منها وصول القديس بونين إلى ليون . وبعض تلك الصور كاد يمحى من طول الزمن .

قصر الأنفاليد في باريس

وفي باريس من التماثيل ، أو الأنصاب في الشوارع العمومية عدد كبير ذكرناه في غير هذا المكان . فنكتفي هنا بذكر أهم ضريح يعظّمه الفرنساويون ويشاركهم في تعظيمه سائر الأمم نعني ضريح نابليون بونابرت في قصر الأنفاليد .

وقصر الأنفاليد بناء فخيم مؤلف من قاعات عديدة بعضها متاحف للأسلحة التاريخية وبعضها لمعروضات أخرى . أهمها القبة التي تتضمن ضريح نابليون الأول سنعود إليها بعد الإيجاز في وصف أهم ما يحويه قصر الأنفاليد من الآثار والتّحف وإن كانت هذه من قَبيل المتاحف لكننا نذكر هذا على سبيل الاستطراد . ففي ساحة القصر مدافع تاريخية منها 17 مدفعاً من جزائر الغرب عليها كتابة عربية إلى أحد جانبيها مدفع صيني والى الجانب الآخر مدفع كوشنشيني . غير مدافع نمساوية صُبَّت في فينّا بالقرن السابع عشر حملها نابليون إلى باريس سنة 1806 ، ومدفع حمل في معركة سباستبول سنة 1856 وغيرها .

أما القصر فقد بناه لويس الرابع عشر . بدأ به سنة 1671 مساحته 126985 متراً مربعاً عرض الواجهة 210 أمتار ، أنشيء ليقيم فيه المتقاعدون من الجند الفرنساوي

يسع 7000 جندي . وقد تغير الغرض المراد به ذلك . واستخدموا قاعاته للمتاحف العسكرية منها متحف الطبجية والمتحف التاريخي . وفي متحف الطبجية نحو عشرة آلاف قطعة من البنادق والمدافع القديمة والحديثة مرتبة حسب أنواعها بينها الأعلام والأدراع والخوذ . وفي جملتها أسلحة ألمانية من أوائل القرن السادس عشر . وبين الأعلام علم جان دارك . وفيها أسلحة البوربونيين من لويس الرابع عشر فما بعده ، وبينها سيوف فرنسيس الأول ، وهنري الثاني ، وشارل التاسع ، وغيرهم شيئ كثير .

وهناك أسلحة شرقية في قاعة خاصة بخزائن يختص كل منها بأمة من أمم الشرق فيها أمثلة من أسلحتها مثل ملقا ، والهند ، والصين ، واليابان ، والبلقان ، وسركاسيا ، ومراكش ، وتركيا ، من السيوف والبنادق . بينها بندقية أمر نابليون بصنعها في روتردام على الخصوص لسلطان مراكش .غير كثير من البنادق التركية ، وبنادق بربرية حملوها من سرقوسة سنة 1808 ، وبنادق عربية وخناجر فارسية ، وخزانة خاصة بالأسلحة الإسلامية فيها أدراعٌ عربية على كل منها اسم الله منقوش بالعربية .

وقاعات للألبسة الحربية باختلاف الأمم الآسيوية والأفريقية وأصناف الناس بينها المركبة التي نقلوا علها عظام نابليون من جزيرة القديسة هيلانة .

أما المتحف التاريخي ففيه الأسلحة التي لها قيمة تاريخية في جملتها أربعة من سروج المماليك غنمها الفرنساويون في معركة الأهرام سنة 1798 . وسيف نابليون الأول ، وقبعته ، وطبنجته ، وكبوته ، ودرع له اخترقتها رصاصة في معركة واترلو[1] .
وفي قاعات أخرى تذكارات من حروب الجزائر «سنة 1830–1857» وحروب القرم سنة 1854 ، وحرب إيطاليا سنة 1859 ، والصين سنة 1860 ، والمكسيك سنة 1862 ، وحرب فرنسا وبروسيا سنة 1870 كل قاعة لنوع من الآثار . بعضها للثياب والبعض الأخر للأسلحة أو الرسوم أو الحلي غنمتها من حروبها في المستعمرات بالجزائر ومراكش والصحراء والسينغال والسودان ومداغسكر والهند الصينية وتونكين والصين . بينها رايات من وادي ومجوهرات الحاج عمر من النيجر[2] ، وسيف مرصع للإمبراطور أنام أخذ منه سنة 1885 وغير ذلك .

(1) معركة واترلو انتصر فيها الإنكليز والبروسيون على نابليون سنة 1815م .

(2) الجملة مضطربة ، وأحسب أن بعض الكلمات قد سقطت من السياق ، أو بدلت مواقعها .

هو عبارة عن قبة علوها 107 أمتار، تشتمل ضريح نابليون وكنيسته . والقبة عليها من الخارج نقوش مذهبة يشرف عليها القادم من بعد . إذا دخلتها وجدت في وسطها ضريح نابليون، وبين يديه هيكل الكنيسة . وإلى جانبي الضريح أضرحة جماعة من قواد لويس الرابع عشر . وبين يدي الكنيسة أربعة مذابح مستديرة يُدخَل إليها من قناطر سفلية صغيرة فيها أضرحة أعضاء أسرة بونابرت . ولا يستطيع الواقف عند ضريح ذلك الرجل العظيم إلا الاعتبار والتأمل في ما أنفقه القوم في تعظيم ضريحه، وما نصبوا حوله من الأعلام والتماثيل . إن الدهشة تستولي على المتأمل من ميل البشر إلى تعظيم الفاتحين . لا تقدر وأنت واقف بين يدي ضريح هذا النابغة إلاّ الصمت والذهول؛ لما يتجلّى على المكان من الوقار كأنك ترى بونابرت واقفاً بين قواده ووزرائه، وكلهم مطرقون رهبةً وإجلالاً- وقفنا برهةً ونحن نراجع تاريخ صاحب هذا الضريح فتبيّن لنا إنه أكثر القادة طمعاً في السيادة وأقدرهم على القيادة وأشدّهم استهواء لرجاله، حتى كانوا يلقون أنفسهم في النار تفانياً في طاعته ولا يبالون . قضى نابليون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وهو يحارب ويجالد، فقلب العروش ودوّخ الممالك ونثر التيجان وقتل النفوس . وقد مضى على سقوطه قرن، ولا يزال العلماء مختلفين في تقديره كأنّ الدهشة لا تزال آخذة بعقولهم . أما الذي نعلمه ولا خلاف فيه فهو أن نحو مليونين من الناس قتلوا في سبيل له أو عليه . وعقب تلك الحمى الاجتماعية ردُّ فعل عاد ببعض النفع للمجتمع البشري لا نظنه يعوض تلك الخسارة .

أمّا الضريح فإنه قائم تحت منتصف القبة على قاعدة من الرخام في حجرة من الرخام مستديرة كالحفرة قطرها 11 متراً وعمقها ستة أمتار لا غطاء فوقها . وفي وسط الحجرة قبر نابليون يحتوي على بقاياه التي نُقِلت من جزيرة القديسة هيلانة[1] سنة

(1) جزيرة إنكليزية في جنوب الأطلسي، غربي أنغولا، نفي إليها نابليون الأول سنة 1815، وتوفي فيها سنة 1821م .

1840 وقد بُني ذلك الضريح من سنة 1842- سنة 1861 ، وطول القبر من الأعلى أربعة أمتار في عرض مترين ، وعلوه أربعة أمتار ونصف متر . وهو مؤلف من خمس قطع من البورفير «الرخام السماقي» من فنلاند وعليه نقوش ورسم التاج ، وأسماء المواقع الكبرى التي قاتل فيها نابليون وهي : ريفولي ، والأهرام ، ومارنكو ، واسترليتس ، وفيينا ، وفريدلاند ، وواغرام ، وموسكو . وحول الضريح تماثيل منتصبة عددها 12 ترمز عن انتصارات نابليون الكبرى . وعشر نقوش رخامية ، وست حزم فيها ستون راية مما اكتسبه من أعدائه . وفي داخل قبة الأنفاليد كثير من تماثيل العظام كالقواد وغيرهم من أصحاب بونابرت .

القصور والمراسح وغيرها

ومن قَبيل الآثار في باريس القصور ، وهي عديدة كقصر الأليزِه ، وقصر اللوفر ، وسيذكر في الكلام عن المتاحف . وكذلك قصر لوكسمبرج ، والتوكاديرو ، والبانتيون ، وغيرها . ومنها المراسح وهي أربعون مرسحاً ، وفيها الأوبّرا الشهيرة . ومن قَبيل الآثار أيضاً منازل العظماء من مشاهيرهم كمنزل أوغست كونت الفيلسوف الشهير ، ومنازل بلزاك ، وبيفون ، وكوفيه وهوغو . وفي كلٍّ منها آثار صاحبها من طاولة السرير ، ومكتب ، وقلم ، وكتاب ، وغير ذلك . ووصف كلٍّ منها يستغرق فصلاً خاصاً وليس ذلك غرضنا هنا . ومنها الميادين أو الساحات العمومية ، وهي نحو ستين ساحة أشهرها ساحة الأوبرا ، وساحة الربوبليك ولا كونكورد والتروكاديرو والكوكب وغيرها .

متاحفها

المتاحف أو مستودعات التحف والآثار لمنفعة الجمهور من مستحدثات هذا التمدن اتخذته الأمم الراقية وسيلة لتوسيع معارف الناس ، وترقية نفوسهم . ولا نظنه بهذا المعنى يتعدّى القرن الماضي . على أن الملوك والأمراء كانوا قبل ذلك يختزنون التحف

في قصورهم للتفاخر بها . ويعد من هذا القبيل مُتْحَف الملك أحشويرش ، وهيكل أفسس ، ودلفي وأثينا ، وقصور البطالسة في الإسكندرية(1) .

متاحف الفاطميين

وكان للعرب حظ وافر من هذه المتاحف لم يقتصروا فيها على جميع التحف الثمينة ، لكنهم أضافوا إليها كثيراً من الآثار التاريخية والصناعية . نعني متاحف الفاطميين بالقاهرة منذ نحو ثمانمئة سنة . وكانوا يسمونها الخزائن كخزانة الجوهر ، وخزائن الأسلحة ، والفرش والأمتعة والبنود . وقد يُظَنُّ لأول وهلة أنها من قبيل مخازن اللوازمات الحربية ونحوها . لكننا عددناها من المتاحف لِما كانت تشتمل عليه من التحف التاريخية المنسوبة لأصحابها من الخلفاء أو الأمراء . كالكؤوس البادِزَهْر التي عليها اسم هارون الرشيد . وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس . وحصير الذهب الذي يُظَنّ أنه جلبت عليه بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون وزنه 18 رطلاً . ورقعة للشطرنج والنرد أحجارها من الجوهر والذهب والفضة . وكان في خزائن الفرش مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة 353هـ وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه الخريطة . وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر ، وعلى كلّ مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير وكتب في آخره «مّما أمر المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار» . وبيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عُمل للمتوكل على

---

(1) أحشويرش : ملك فارسي قديم (486 – 465) ق .م . أخضع مصر ، واجتاح اليونان ودمّر أثينا .
وأفسس : مدينة قديمة في آسية الصغرى ، وهيكلها من عجائب العالم القديم .
ودلفي مدينة يونانية قديمة فيها هيكل أفولون . وأثينا من أشهر مدن اليونان .
والبطالسة : سلالة يونانية حكمت مصر من سنة 323 – 30 ق .م .

الله لا مثيل له ولا قيمة صار إلى تاج الملوك . وصار إليه أيضا بساط خسرواني دفع إليه فيه ألف دينار فامتنع عن بيعه .

وكان في خزانة السلاح درع المعز لدين الله ، وسيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق . وكان عندهم في خزائن أخرى منديل القائم بأمر الله العباسي وغير ذلك . وناهيك بالجواهر والحليّ الثمينة ممّا لم يُعهد له مثيل عند غيرهم . هذه كلها ذهبت بالفتن في أثناء الدولة الفاطمية . وما بقي ذهب بذهاب الدولة .

على أن هذه المتاحف كانت مقفلة ، لا يدخلها غير أصحابها فلا نفع للناس منها ، وكذلك ما كان من هذا القَبيل في الأجيال الوسطى بأوربا . وأقدم من أنشأ المتاحف بأوربا ، وفيها الآثار الصناعية والعلمية والتاريخية كوسمو الأعظم في فلورنسا بالقرن السادس عشر للميلاد . أي بعد ذهاب الدولة الفاطمية ببضعة قرون ، يليه متحف البابليون العاشر في الفاتيكان في ذلك القرن . والإيطاليان أسبق دول أوربا إلى هذه المنقبة مثل سبقهم إلى إنشاء المدارس العلمية ، وهي أيضاً ممّا اقتبسوه عن العرب . واقتدت بهم سائر أمم أوربا . فأخذ الأمراء والملوك يجمعون التحف والمصنوعات ونحوها في خزائن بلا ترتيب ولا غرض معين غير التفاخر بها . ولم تتحوّل الغاية من جمعها إلى منفعة الجمهور إلاّ في القرن الماضي . وفي باريس من هذه المتاحف عدد كبير سنأتي على وصف أهمها وبيان ما شاهدناه فيها مما يهم القراء .

متاحف باريس

في باريس نحو أربعين متحفاً يمكن جمعها تحت عدة رؤوس حسب الغرض منها ، أو ما تحويه من الآثار أوالتحف . منها متاحف عامة فيها كل أنواع التحف من المصنوعات على اختلاف فنونها ومن الآثار التاريخية والفنون الجميلة وغيرها ، أهمها متحف اللوفر . ومنها متاحف فنية يراد بها تنشيط الفنون الجميلة كالرسم والحفر والتصوير مثل متحف لوكسنبرج . ومتاحف حربية لعرض الأسلحة ونحوها كالمتحف العسكري في قصر الأنفاليد وقد تقدّم ذكره . ومتاحف علمية أو هي معارض لعرض

المجاميع الجيولوجية والتشريحية والحيوانية والنباتية ونحوها . ومتاحف دينية يراد بها الاحتفاظ بالآثار الدينية الكنائسية كمتحف جيمي . ومتاحف تاريخية وغيرها . غير المتاحف الخصوصية التي تقدمت الإشارة إليها بين الآثار ممّا ينسب إلى أصحابه من المشاهير في منازلهم كمنزل هوغو وأوغست كونت وغيرهما . ولنبدأ بوصف ما شاهدناه في أهم متاحف باريس .

متحف اللوفر

تاريخه:

هو أفخم متاحف باريس وأهمها من حيث بناؤه وما حواه من التحف . ولإنشائه تاريخ يطول بنا إيراده ، وإنما يقال بالإجمال إنّ اسمه مشتق من اسم غابة كانت هناك لصيد الذئاب اسمها لوبار واسم الذئب في لسانهم «لوب» فسمي المكان «لوبرا» ثم لوفر . ويقال إن أصل ذلك البناء قلعة بناها فيليب أوغست في أوائل القرن الثالث عشر في جملة سور باريس . ثم اتخذها شارل الخامس مستودعاً لذخائره وكتبه وجعلها منزلاً لائقاً بالملوك . لكن ذلك البناء لم يبقَ منه شيء ، وإنما بقي ما بناه فرنسوا الأول سنة 1546 واتصل العمل بعده على عهد هنري الثاني «1547-1559» ومن خلفه ، وفي جملتهم كاترين مديتشي أرملة هنري المذكور وأولادها .وهنري الرابع وغيرهم . ولم يتم بناء هذا القصر إلاّ في زمن نابليون الأول فإنه أمر سنة 1805 بترميمه كلّه وأتم ذلك نابليون الثالث . فاتسع القصر اتساعاً لا يضاهيه فيه قصر من قصور العالم فإن مساحته التي عليها البناء نحو 198000 متر مربع أي ثلاثة أضعاف مساحة قصر الفاتيكان . ويقسم إلى قسمين رئيسيين اللوفر القديم ، واللوفر الحديث منه جزء تشغله نظارة المالية . وفي ساحة القصر حدائق نصبوا التماثيل في أركانها- فيبدأ الزائر يهتم بذخائر اللوفر قبل دخوله فضلاً عمّا يشاهده من فخامة البناء وإتقان صنعه .

أما الذخائر والتحف التي يتضمنها ذلك القصر فهي مفرقة في طبقاته حسب أنواعها ومواضيعها . ففي الطبقة الأرضية الآثار الرخامية ونحوها مما يثقل حمله . ومن

جملتها الآثار الآسيوية والمصرية ومنحوتات الأجيال الوسطى وأوائل النهضة إلى هذا العصر . وفي الطبقة الأولى فوق الأرضية معارض الصور الزيتية وسائر الفنون الجميلة من منحوتات ومسبوكات ومن سائر المصنوعات الثمينة قديمة وحديثة . وفي الطبقة الثانية معرض التصوير أيضاً ومعرض البحرية . وفي الأجنحة وغيرها معروضات أخرى .

أما تاريخ اتخاذ قصر اللوفر متحفاً ، فيرجع إلى القرن السادس عشر بعد نهضة التمدن الحديث بدأ الملوك بوضع بعض التحف أو المصنوعات الجميلة وأكثرها من إيطاليا . ولكنه لم يجتمع فيه ما يستحق الذكر إلاّ في زمن نابليون الأول وقد جاء جنده بالغنائم من إيطاليا وغيرها وفيها الذخائر الكثيرة أضيفت إلى ذلك المتحف . وما زالت تجتمع التحف فيه حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، ويعد من أعظم متاحف العالم . وهو لسعته لو أراد الإنسان أن يطوف غرفه ماشياً لاقتضى لذلك ساعتين على الأقل فكيف لدرس ما فيه أو وصفه؟ لذلك فإننا سنقتصر على ما يهم القراء منه .

المنحوتات

ففي متحف الرخاميات القديمة في الطبقة الأرضية من البناء 3000 قطعة مفرقة في قاعات عديدة نذكر منها على الخصوص قاعة الآثار الأفريقية وفيها آثار شمالي أفريقيا : مصر وقرطاجة وتونس والجزائر . وقاعة الآثار الرومانية واليونانية على اختلاف الأعصر والمواضيع من تماثيل الأشخاص والوقائع صناعتها تدهش المتأمل . منها تمثال شاب جالس وهو عار ينزع شوكة من أخمص قدميه ، ملامحه واضحة لدرجة غريبة . ومنحوتات تمثل عادات الرومان واليونان من جملتها رجل عاد من الصيد فنزع رداءه ، وعلّقه على غصن شجرة ، وعلق صيده بجانبه وأخذ يلاعب كلابه بأرنب يوهمها أنه يدفعه إليها ثم يرجعه . وتمثال آخر لرجل أخذ يلبس نعاله وهو يشدُّ سيورها . غير عادات الرقص والموسيقى وتماثيل العظماء ، أو الرموز الدينية أو الميثولوجية بينها تمثال فينوس ميلو ، ويعدونه أتقن تماثيل اللوفر ، وقد تغزل به الشعراء والكتاب منذ القديم . وأعجبوا بإتقان صنعه رغم نقص ذراعيه . وهو تمثال الزهرة

حملوه من ميلوس . وفي بعض القاعات تمثال نصفي لإسكندر المكدوني الكبير ، ورأس هوميروس ، وتمثال أبولون وديانا وباخوس ورمز عن التيبر بديع الصنع .

المنحوتات الشرقية

وقسم الآثار الآسيوية منها قاعة لآشور فيها الثوران الآشوريان الضخمان ممّا ينصبه الآشوريون ببيبان الهياكل كما ينصب المصريون أبا الهول . والثور الآشوري رأسه رأس إنسان رمز عن العقل وله قوائم الثور وأجنحة النسر دلالة على القوة . وهناك كثير من القراميد الآشورية عليها الكتابة المسمارية باللغة الآشورية .

ومن جملة تلك الآثار أنقاض بلاد السوس ، وفي جملتها مسلّة حمورابي الشهيرة وعليها شريعته منقوشة بالحرف المسماري . وقد ذكرنا ترجمتها في السنة 13 من الهلال ، وهي أقدم ما وصلنا من الشرائع المدونة «نحو سنة 2250 ق م» ومسلة نرام سين ملك أكاد «سنة 3750 ق م» وعليها صورة ذلك الملك يطارد أعداؤه . والملك منيشتوسو ومسلته «نحو 4000 ق م» وغير ذلك .

وفي قاعة الآثار الفينيقية عدة نواويس[1] فينيقية من الرخام الأسود والأبيض تشبه النواويس المصرية – بينها ناووس أشمو ناصر ملك صيدا عليه كتابة فينيقية هي أطول ما وجدوه من الكتابة على النواويس . وقاعة للآثار الفينيقية القبرسية فيها شيء من المصنوعات القديمة كالتماثيل والأعمدة والأقداح . وقاعة الآثار الإسرائيلية استلفتت انتباهنا فيها على الخصوص مسلة ميشا ملك مواب في القرن التاسع قبل الميلاد وعليها كتابة موابية تصف حروب هذا الملك مع اليهود . وهي اقدم الآثار الكتابية الأبجدية التي وقفوا عليها حتى الآن .

وقاعة الآثار المصرية ويُعدّ ما فيها من الآثار المصرية من أهم ما في المتاحف الأوربية من نوعها . في جملتها تمثال أبو الهول العظيم الحجم يستلفت الانتباه عند مدخل القاعة . وهناك ضريح تاهو من صنع العائلة الخامسة والعشرين المصرية وهو

---

(1) جمع ناووس وهو حجر منقور تجعل فيه جثة الميت .

أتقن ما صُنع في ذلك العصر . وتمثال سيتي الثاني وسبك حوتب . ومثال «نسخة» لمنطقة الأبراج المصرية التي وجدوها في دندرة . وتمثال رعمسيس الثاني . وقاعة خاصة لمكتشفات ماريت باشا في السرابيوم بمصر ، وتمثال العجل أبيس .

ومتحف القرون الوسطى ، وبدء النهضة الأخيرة فيه من التماثيل والمنحوتات المتقنة ما يدهش المتأمل أكثرها تماثيل نصرانية . منها قاعة ميشال آنج النحات الإيطالي الشهير ، بينها تمثال رخامي لأميرين مغلولين يقال لهما : العبدان صنعهما ميشال آنج في أوائل القرن السادس عشر ليوضعا على ضريح البابا جول الثاني في رومية يريد أن يمثل بهما الفضيلة مقيدة . وتمثال شارل الخامس ملك فرنسا «توفي سنة 1380» وتمثال امرأته جاندي بوربون ، وغير ذلك من التماثيل المتقنة . وهناك قاعات عديدة للمنحوتات الحديثة يضيق المقام عن ذكرها فضلاً عن وصفها .

معارض الصور

وفي الطبقة الأولى من اللوفر معارض الصور الزيتية ، وغيرها ممّا يستحيل الإفاضة فيه . ولا يقدر الكاتب على وصف ما في صوره من دقة الصنع ما لم ينقل الصور نفسها وهي تزيد على 3000 صورة يختلف حجمها من بضعة أمتار طولاً إلى أقل من متر . وكلّها لمشاهير المصورين على اختلاف الأعصر والبلاد والأمم . ويُعَدّ هذا المعرض أغنى معرض من نوعه في متاحف العالم وأهمها . وفيه طائفة من أتقن ما صوره الإيطاليون ، والهولنديون ، والفرنساويون ، وغيرهم . ومجموعة مدهشة من الصور الزيتية على القماش . ولصور رفائيل مجموعة حسنة مرتبة حسب تدرجه في إتقان هذه الصناعة وفي جملتها صورة القديس جورجيوس يقتل التنين وصورة الملاك ميخائيل وغيرهما .

ومن صور المصورين الأسبانيين شيء كثير نُقِلت من إشبيلية ومدريد فيها صورة الطفل مرغريت رسم فيلاسكس . وهناك صور من أحسن ما صنعه الإسبانيون والهولنديون ولا سيما جان فانديك الشهير ، ورامبران ، وفرنسال . ومن المعروضات الألمانية لهولبين وغيره . وللإنكليز في هذا المعرض 35 صورة بعضها لويلس ،

وكونستابل وبوننتن ، ورينولد وغيرهم ، وغير ذلك ممّا يعجز القلم عن وصفه . ونعترف بعجزنا عن وصف ما ألمَّ بنا من الدهشة عند وقوفنا أمام هذه المصنوعات البديعة . ولم يدهشنا إتقانها أقل ممّا أدهشتنا كثرتها . فإن قاعة واحدة منها طولها 375 مترا جدرانها مغطاة باصور الزيتية المتفاوتة الأقدار والأشكال ، متزاحمة صفوفاً بعضها فوق بعض . وفي جملة هذه الصور صورة جوكوندة الشهيرة التي سُرقت بالأمس وشاع أمرها .

وبالإجمال فإن تلك الصور بعضها يمثل المشاهير من الرجال أو النساء . والبعض الآخر يمثل العادات كمجلس طرب بين أهل القرى في القرن السابع عشر . وولادة أمير . وفتاة عائدة من المدرسة . مأتم دفن . وبيع اللحوم . أو الحوادث التاريخية كموت سنيك . وموت شرويل . وضرب موسى الصخرة بعصاه . والعذارى الثلاث . وصلب المسيح . وتمثيل الفردوس . ومحاكمة دانيال . أو المناظر الطبيعية كتأثير الثلج في الطبيعة . ومقاتلة الذئاب . وأسد هاجم على جواد . وصورة الفجر . أو الميثولوجيا مثل هركيل ، وفينوس ، وأدونيس . ومنها صورة طولها عدة أمتار تغطي جدران الغرفة كلها . ومن أسماء المصورين روين ، وفراغونار ، ورينول ، وماتيه وريغو ، ورويستي ودلتنيثورتو ، وجوردانو ، وشمباني ، وسنيدر ، ولارجليار ، وفان لو ، وفانديك ، ورفائيل ، وواتو ، وكوربت وماير وغيرهم كثيرون .

والرسوم التي تمثل العادات الشرقية في هذا المعرض قليلة منها صورة تمثل استقبال سفير بندقي جاء القاهرة بملابسه الرسمية في القرن السادس عشر رسمها بليني طولها ثلاثة أمتار بمترين .

وهناك قاعات عديدة كل منها تختص بصور شهير جمعت مصوراتة معاً ، وتسمى القاعة باسمه مثل قاعة فانديك ، وقاعة روبنسن ، وقاعة فرانس هال ، وغيرهم . وغير القاعات المنسوبة إلى البلاد كقاعة الإيطاليين ، وقاعة الهولنديين ، والفرنساويين . والمراد بها بيان ما تمتاز به كلّ أمة من التفنن بالتصوير لفائدة طلاب هذه الصناعة من التلاميذ أو الغُواة ،[1] وللفن الفرنساوي عدة قاعات حسب الأعصر كل قرن على

---

(1) يريد بالغواة : الهواة . والكلمة غير فصيحة .

حدة إلى القرن التاسع عشر .

معارض المصوغات والمجوهرات

وفي هذه الطبقة من اللوفر قاعة كبيرة يسمونها قاعة أبولون ، هي أجمل قاعات المتحف من حيث بناؤها وزخرفها . وقد وضعوا حول جدرانها أجمل الأثاث من زمن لويس الرابع عشر . وأقاموا في وسطها مواقف أو خزائن «فترينات» وضعوا فيها من الجوهرات والمصوغات أثمن ما في أوربا منها إبريق من اليشب الأسمر[1] صنع القرن السادس عشر . وإبريق أو مزهرية من اليشب الشرقي عليه ميناء في غاية الجمال . وإبريق من اليشب . وفي فترينة أخرى مجموع مصوغات من عصر النهضة الإيطالية ، وجواهر مصوغة في شكل قبة . وكؤوس من الجماشب[2] عليها ميناء أو بلا ميناء . ومصوغات من صنع فرنسا وإيطاليا . وأدوات من العصر القوطي بينها كؤوس من البلور وأطباق من الذهب منزلة بالميناء صنع البندقية . وعلبه فيها ذراع شارلمان صنع ألمانيا في القرن الثاني عشر . وكأس للقديس لويس عربي الشكل عليه نقوش دينية ، ويعرف بكأس عمّاد القديس لويس . وغير ذلك من الأدوات المقدسة والكنائسية يطول بنا ذكرها نكتفي منها بالجوهرات الملوكية . وأول ما استلفت نظرنا منها ألماسة تسمى «ريجان» هي أجمل ألماسة معروفة وزنها 136 قيراطاً ، ابتاعها فيليب أورليان سنة 1717 . وتقدر قيمتها اليوم بخمسة عشر مليون فرنك . وبجانبها الماسة تسمى مازارين ، لونها هورتنسي ، بينهما ياقوتة كبيرة اسمها «كوت دي بريطاني» وإلى اليسار عقد من اللؤلؤ أمامه سيف شارل العاشر مرصع بالجواهر الثمينة على غمده الحرف الأول من اسم نابليون . وهناك مثال لتاج لويس الخامس عشر عليه أمثلة من مجوهراته . وبجانبه تاج نابليون الأول صنع سنة 1804 ، تقليداً لتاج شارلمان أحجاره

---

(1) اليشب : حجر كريم .

(2) الجماشب : لم أجد لها ذكراً وأحسبه تصحيفاً ولعله الجمَسْت : وهو مصنوع من الحجارة الكريمة .

قديمة . وبينهما لوح تاريخي لذكرى صلح تيشن سنة 1779 صنع ألمانيا . وأمامه ساعة أمير الجزائر أخذت منه سنة 1830 ، وبروش لكاترين دي مديتشي من الألماس . وقس على ذلك عشرات من القطع الثمينة المصوغة بالذهب أو الفضة والمرصعة بأنواع الحجارة الكريمة من قديم وحديث صنع فرنسا ، أو أسبانيا أو غيرهما من القرن الحادي عشر فما بعده بينها أوسمة ومداليونات مختلفة الأشكال .

وبجانبها قاعة اسمها قاعة المصوغات فيها المصوغات القديمة قبل النهضة الأخيرة «انتيكا «بينها خوذة غالية من الحديد الموشى بالميناء من زمن الرومان . وعقد أتروسكي ، وفضيات وجدت في بوسكوريال قرب بمباي هي 24 قطعة من الصناعة اليونانية الإسكندرية . بعضها لا يزال كأنه صنع بالأمس ، وعدد كبير من الخواتم اليونانية والرومانية والأقراط الأتروسكية وقطع مصوغة وجدها[1] في أزمير وغير ذلك .وفي قاعة أخرى صورة زيتية كبيرة تمثل بونابرت في زيارته المطعونين بيافا «سوريا»

وهناك قاعة خاصة بمصنوعات قديمة من البرونز وجدوها في أنقاض اليونان وغيرها من الأمم الأوربية القديمة ، وقاعات كل منها خاصة بملك من ملوك فرنسا فيها رياشه وأدواته . إحداها للويس الرابع عشر ، وأخرى للخامس عشر ، فالسادس عشر ، وكل منها تحوي ما يستغرق وصفه عدة صفحات . ومعرض للرسوم فيه 50000 رسم من أقدار مختلفة وضروب متنوعة . وآخر لمصنوعات الأجيال الوسطى ، وقاعة لتحف أهداها روتشيلد للوفر قيمتها بعشرين مليون فرنك وتعرف باسمه .

مصنوعات شرقية

وقاعة خاصة بالقيشاني الشرقي فيها قطع صنع دمشق في القرن السادس عشر ، وأخرى من القاهرة ، وعلبة عليها نقش باللغة العربية يقرأ «المغيرة» يظن أنه ابن عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة نحو سنة 967 م ومصابيح للمساجد . وكأس عليه

---

(1) كذا وردت ، وأحسبها : وجدوها .

اسم أبو[1] المظفر يوسف الأيوبي سلطان حلب سنة 1236-1260م

ومعرض التحف الآسيوية منها قاعة السوس ، وبلاد الكلدان ، وبابل وفينيقية ، أهم ما فيها مسلة فينيقية للإله سلمان ، وأخرى آرامية تعرف بمسلة تيماء ببلاد العرب . وأمثلة كثيرة من زجاج فينيقي ، ومصوغات فارسية قديمة ، وعقود من الذهب وقطع نقود وجدت في ضريح من البرونز من القرن الرابع قبل الميلاد . ونقود بيزانتية ، ومصوغات سلوقية ، وتماثيل آشورية من عصر سرجون الأول بينها خريطة مجسمة لنوموليس في بلاد السوس «سوزيانا» مثلت فيها الأودية والجبال . وقاعة أخرى للتحف الفارسية القديمة ، وفيها قطع بنائية من زمن ارتاكزرسيس . ومعارض لأدوات الحداد والمآتم المصرية وللآلهة المصرية يراد بها الميثولوجيا المصرية .ومعارض للصناعة القديمة في ممالك التمدن القديم ولاسيما بلاد اليونان .

وفي قصر اللوفر جناح خاص بمعروضات الشرق الأقصى مما وهبه الفضلاء لخدمة الجمهور ، وكل قاعة باسم مهديها بعضه للصين أو اليابان أو فارس ، ولا سيما السوس «سوزيانا» مما يطول بنا شرحه . وشاهدنا عند مدخل اللوفر قاعة فيها قطع من جدران فينيقية مصورة بالفسيفساء عثر عليها رينان سنة 1863 في كنيسة القديس خريستفورس قرب صور «سوريا» عليها رسوم حيوانات من أرانب وطيور ، وأسود ، وبقر وأسماك . منها قطعة على الأرض طولها 12 متراً . ومثلها سبع قطع تختلف حجماً ورسماً . وضريح من رخام لكاهن قرطاجي وقطع عليها نقوش حملت من قرطاجنة وغيرها .

وفي اللوفر من المصنوعات الجميلة المدهشة الأبسطة ، أو الستائر «غوبلين» المنسوجة بالصور تجلل الجدران من القرن الخامس عشر فما بعده وهي ثمينة وتمثل صوراً تاريخية .

---

(1) صوابها : أبي .

المكتبة الأهلية

المكتبة الأهلية الفرنساوية من أهم مكاتب العالم . ولا نريد الإفاضة في وصفها هنا وإنما أردنا الإشارة إليها إجمالا لذكر ما شاهدناه في معرض الأوسمة بجانبها . بناء المكتبة عظيم فخيم لا يزال العمل جارياً في توسعته ليشغل نحو 16500 متر مربع . ويقال في تاريخ خزن الكتب فيها إن الكرولنجيين كانوا يعتنون بجمع الكتب الخطية وكان للويس التاسع المتوفى سنة 1370 مكتبة خصوصية . وكذلك شارل الخامس ، ولويس الثاني عشر. لكن هذا الأخير يعد مؤسّساً للمكتبة التي نحن في صددها في أوائل القرن السادس عشر . واشتغل خلفاؤه في توسيعها وحشد الكتب ، وغير الكتب فيها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن . وهي أربعة أقسام كبرى : «1»- المطبوعات والخرائط «2»- المسودات الخطية «3»- الرسوم «4»- الأوسمة والتحف القديمة . وفيها قاعة للمطالعة واسعة جداً . ففي قسم الرسوم نحو 2500000 قطعة محفوظة في نحو 14500 مجلد و4000 خريطة . وفي قسم المسودات الخطية 102000 كتاب .

وعلى بعض المسودات العربية في هذه المكتبة صور مرسومة من القرون الوسطى ، منها صورة على مسودة قديمة تمثل فرسان من العرب على أفراسهم يستخدمون النار اليونانية .

وفي المكتبة معرض للمخطوطات والمطبوعات النادرة بينها خطوط العلماء المشاهير وتواقيعهم بأيديهم منهم رابلي ، وفيلون ، وراسين ، وروسو .

معرض الأوسمة

هو من جملة بناية المكتبة وله باب خاص من الخارج . سمي كذلك لما فيه من ضروب الأوسمة والنياشين يزيد عددها على 150000 قطعة . ولكن فيه تحفاً كثيرة هامة بعضها مصري منها منطقة البروج التي عثروا عليها في دندرة[1] ويرجع تاريخها

---

(1) دندرة مرّ ذكرها سابقاً وهي موقع أثري في صعيد مصر على النيل شمالي الكرنك .

إلى العصر الروماني . ومنها خزائن فيها تحف ثمينة تاريخية مثل ترس شيبيون بما عليه من النقوش الميثولوجية .

أثران عربيان

وأهم ما شاهدناه هناك مّما يهم القراء أثران عربيان يتوق كلّ عربي إلى رؤيتهما .

أولاً : سيف أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة آخر ملوك العرب في الأندلس الذي غلبه الأسبان في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد «سنة 897هـ» موضوع في خزانة مع تحف أخرى ، فوقفنا عنده برهة وراجعنا تاريخ صاحبه وكيف انقضت دولة العرب من أوربا بانقضائه .

ثانياً : هدية هارون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا . من المشهور على أقلام الكتاب نقلاً عن كتبة الإفرنج أنّ الرشيد أهدى شارلمان المذكور ساعة دقّاقة هي أقدم ساعة في أوربا مع هدايا أخرى . ولم نجد ذكراً لهذه الهدية في كتب العرب القدماء ، وكنا نتوقع أن نعثر عليها في متاحف أوربا . وقد بحثنا بحثاً دقيقاً في المتاحف التي تردّدنا إليها في الصيف الماضي بفرنسا وإنكلترا وسويسرا ، فلم نقف لهذه الساعة على أثر ولا ندري إذا كانت موجودة في بعض المتاحف الأخرى .

لكننا عثرنا في متحف الأوسمة الذي نحن في صدده على حجر شطرنج كبير الحجم يمثل فيلاً عليه راكب . وقد عرفوه بأنه بقية قطعة شطرنج أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان .

متحف لوكسنبرج

هو متحف في قصر لوكسنبرج والقصر من أفخم قصور باريس . بني بأمر ماري مديتشي أرملة هنري الرابع في أوائل القرن السابع عشر ، واجهته الرئيسية طولها 90 متراً . وقد رم مراراً وخصوصاً سنة 1804 بأمر نابليون الأول . وجعله مقرا لمجلس الشيوخ ، وجعله غيره لغيرهم ، لكن نابليون الثالث أعاده لهم . وأقام هذا القصر

كثيرون من الأمراء والأميرات ، وخُصّص جانبٌ منه لعرض التحف الفنية كما عرضت تحف اللوفر لكن بعض الزائرين يزور القصر لحضور جلسات المجلس بإذن خاص . وفي قاعة الاجتماع 300 كرسي للشيوخ و800 للحضور .

وإنما يهمنا من هذا المتحف ما حواه من المصنوعات الفنية حفراً أو نحتاً أو تصويراً . وتقسم تحفه إلى التماثيل والصور . وفيه طائفة حسنة من السجاد أو الأستار المصورة بالنسيج مما يدهش الناظر . ومن العبث أن نحاول وصف ما هنالك لأسباب تقدم بيانها ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعض ما يهم القراء معرفة وجوده .

فمن المنحوتات ما يمثل بعض الحوادث التاريخية كتمثيل هاجر وإسماعيل صُنْع النحات إيزلين كما يتوقع أن يكون حالهما من وصف التوراة لهما . وقتل قابيل لأخيه هابيل . وتماثيل عظماء اليونان والرومان وغيرهم . منها تمثال داود النبي عارياً وفي يده سيف . وقد استوقف خاطرنا تمثال امرأة عربية تطرز على المنسج . ومنها طائفة تمثل الفضائل أو الأخلاق أو العواطف كالحرية والفرح والتقوى والحنو والحزن والتألم والخوف والسذاجة والمكر والخبث . أو تمثل بعض العادات منها : فرس عربي وصاحبه بجانبه . وزنجي سوداني عليه عمامة وشملة . وجهه أسود أمّا العمامة فمن الرخام المعرّق اللون يوهم الناظر أنه قماش منسوج

وعلى كلّ تمثال اسم صانعه وفيهم نخبة من النحّاتين المعاصرين منهم : مولين ، وديبوا ، ومارسيه ، وكورديه ، وايزلين ، ورودين ، ودلا بلانش ، وادراك ولاكورنيه وبويش ، وبداسو ، وهانو ، وغيرهم .

أما الصور فإنها تشغل عدة قاعات جدرانها مكسوة بالصور على اختلاف أقدارها ، مما يزيد طوله على ستة أمتار إلى أقل من نصف متر . ومن الصور الكبرى صورة في صدر القاعة الأولى تمثل قايين مهاجراً مع أهله ، وقد قوضوا خيامهم وساقوا أنعامهم بألوانها وأشكالها . وصورة واقعة تاريخية في مراكش فاز فيها السلطان ، وساق الأعداء إليه أمواتاً وأحياء . وصورة أيوب يتضرع لله . وصورة أليعازر قائماً من الموت . وغير ذلك ما يعد بالمئات وكل صورة يقتضي لوصفها عدة صفحات ، وكلها لأشهر المصورين من معظم الأمم . وفي جملتهم ليفي ، وبوغورو ، وويرتس ، وديلوني ، وكورمون صاحب صورة قايين وهابيل ، وجرفكس ، وريبو ، وبونا صاحب صورة داود .

وبازياس ، وورلنسن ، وكونستان صاحب صورة موقعة مراكش . وهيبر ، وجيروم ، وغيرهم .

أما السجاجيد أو الستائر المعروفة عندهم باسم غوبلين فإنها عديدة ، أكثرها مبسوط على جدران قاعات المنحوتات يبد عددها على بضع عشرة أستار ، قد رسموا عليها بالنسيج صوراً تاريخية ، أو مجالس سياسية . في جملتها صورة لويس الرابع عشر في مجلسه ، ونحو ذلك . وهي من صنع القرون المتأخرة .

متحف كليني

هو في قصر أشبه بالأديار منه بالقصور ، بُني في الأجيال الأولى للنصرانية يرجع في أصل بنائه إلى أواخر القرن الثالث للميلاد ، ولم يبقَ من هذا البناء إلاّ غرف الحمّام . ثم صار في القرن الرابع عشر تابعاً لدير كليني ، فبنى الرهبان على أنقاضه مسكناً لهم على الطرز القوطي . تمّ بناؤه سنة 1490 على يد الرئيس جاك دامبواز ، وقد حافظ على شكله . وسكنته ماري ملكة إنكلترا ثالثة أزواج لويس الثاني عشر ، وهي التي تسمى الملكة البيضاء وغيرها . ولما حدثت الثورة الفرنسية أصبح البناء ملك الأمة . وفي سنة 1833 جعله العالم الأثري اسكندر سومرار مستودعاً لتحفه وأكثرها من مصنوعات الأجيال الوسطى ، وأوائل النهضة ثم صار بعد موته للحكومة .

والتحف المشار إليها من أجمل المصنوعات القديمة من كل نوع يزيد عددها على 11000 قطعة فيها كثير من الأدوات الكنائسية والمنسوجات الدقيقة ، بينها ضروب من التطريز والتخريم بعضه يشبه كثيراً ما يستحدثه أصحاب الأزياء الجديدة في باريس . ولعل هؤلاء قبل أن يستنبطوا زياً جديداً من المنسوجات أو المطرزات يطّلعون على ما في هذا المتحف وأمثاله من الأزياء القديمة ، ويستخرجون من مجموعها زياً جديداً . وممّا شاهدناه من المتحف ستارة «غوبلين» عليها صورة أصلها لرفائيل .

وفيه قاعة للقيشاني وأشباهه تدهش المتأمل أكثر ما فيها من فرنسا وأسبانيا وإيطاليا . وفيها خزائن مملوءة بمصنوعات البندقية من الزجاج والأطباق ، عليها رسوم بديعة . رأينا على بعضها صورة شمشون ودليلة . وعلى طبق آخر رسم يونون وإيزيس .

وعلى غيره ولادة باخوس . وقيشاني إسباني عربي من القرن الرابع عشر فما بعده . وغيره صنع رودوس .

وقاعة الأدوات اليهودية فيها المفروشات والمسودات والنقود والمصوغات . وطائفة حسنة من المصنوعات العاجية والبرونزية . ورأينا من المصوغات تسعة تيجان من الذهب عثروا عليها بين سنة 1858 و1860 قرب طليطلة بأسبانيا ، أكبرها مرصّع باللؤلؤ والزفير الشرقي وغيرهما من الحجارة الكريمة مرتبة بشكل حروف إفرنجية ترمز عن اسم ركسيفونتس من ملوك الوسيقوط « من سنة 649-672» . ورقعة شطرنج حجارتها من البلوط المعدني صنع ألمانيا في القرن الخامس عشر . وهناك طائفة من أنواع الإسطرلاب والبوصلة والساعات من القرن السادس عشر والسابع عشر .

متحف جريفن

هو متحف خاص من نوعه . فيه تماثيل من الشمع لمشاهير الرجال المعاصرين وغلاهم[1] بملابسهم وأزيائهم . وقد أتقن صنعها حتى يصعب على الزائر أن يميز بين التماثيل المنصوبة منها والوقوف من الزائرين . وفي جملة التماثيل المشار إليها طائفة من رجال فرنسا وغيرهم مثل رشفور كوكلين وجول كلارسي ، وموريس بارس ، وكليمانسو ، وغيرهم . بين وقوف على انفراد أو أزواج وجماعات كأنهم يتحدثون ، أو يلعبون وقد مثلوا مواقف تاريخية مشهورة مثل : عائلة لويس السادس عشر لمّا بلغها خبر الثورة وقد دخل الغوغاء عليهم . وروبسبير ، ودانتون ، وديمولين ، وبيلي . ولافت . ولويس السادس عشر في سجنه . ومحكمة الثورة الفرنساوية وفيها القضاة . ومدام رولان ساعة المحاكمة . لا ينقص أحد منها غير النطق والحركة ، وميرابو في موقف الخطابة . والقبض على شارلوط كوردي . ونابليون وجوزفين يسمعان الموسيقى . وهما

(1) كذا وردت ، ولعلها "وعائلاتهم" .

في موقف آخر مع مدامـوزيل اوغيـه . ولويس نابليـون . ومرات مع جمهور من السيدات . وكل جماعة في غرفة فيها الرياش والألبسة والأدوات كما كانت في وقت الحادثة مما يدهش الناظرين .

وفي الطبقة السفلى أمكنة كالدهاليز والسراديب مثلوا بها أحوال النصرانية في أوائل أحوالها يوم كان المسيحيون يتكتّمون بصلواتهم وطقوسهم ، وما كانوا يقاسونه من العذاب والاضطهاد . نقلنا منها صورة مأتم والقوم وقوف حول الميت يصلون عليه ويخافون الخروج به . لا يقدر الزائر لتلك الأماكن إلاّ التخشع لما يظهر في ملامح أولئك المسيحيين من التقوى والخشوع وصدق الاعتقاد .

ورأينا في جملة التماثيل تمثال جان دارك على جوادها بأسلحتها ، وبيدها العلَم وقد وقف بجانبها حارسان من رجالها . ومجلس البابا بيوس العاشر في كنيسة سكستين وقد جلس على عرشه وبين يديه الكردينالية بين جالس وواقف وجاث . وبالجملة فإن متحف غريفن هذا من مدهشات الصناعة . وهناك متاحف أخرى في باريس يضيق المكان عن ذكرها نشير منها إلى متحف جيمي وهو من المتاحف الدينية ، وفيه الآثار الدينية على اختلاف أشكالها باختلاف الأمم القديمة والحديثة .

متاحفها في ضواحي باريس

فرسايل

هي بلدة على نحو 20 كيلو متراً من باريس ، فيها قصر لويس الرابع عشر ، ومن خلفه من ملوك فرنسا . سكانها نحو 50000 نفس وفيها الشوارع المنتظمة ، والساحات الفسيحة ، والقصور الفخيمة . وقد بنيت في الأصل على بقعة رملية لا ماء فيها و إنما رغب لويس المذكور في بنائها لصفاء جوها ونقاوة هوائها . فأنفق في إنشاء قصره وجلب الماء إليها مالاً طائلاً . وأحصوا عدد الذين اشتغلوا في ذلك فبلغوا 36000 رجل و6000 حصان . وبلغت النفقة عليها في أيام لويس الرابع عشر ما يُقدّر بنحو خمسمئة مليون فرنك . غير الذين سخروا في العمل بلا أجرة . ولعل هذا الملك

السعيد اقتدى بما فعله عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة ببناء الزهراء ، أو المنصور بن أبى عامر ببناء الزاهرة . أو ابن الأحمر ببناء الحمراء في غرناطة . وتقدر نفقات الزهراء بنحو 50000000 دينار ، أي نحو ما أنفقه لويس هذا على قصره في فرسايل . ولكن عدد المشتغلين في بناء الزهراء كانوا 100000 و1500 دابة . على أن الزهراء امّحت الآن وعفت آثارها . و أما فرسايل فلا تزال باقية والفرنساويون يبالغون بالاحتفاظ بها .

واتخذ لويس المذكور فرسايل مسكناً له سنة 1682 ، ومنها كان يصدر الأوامر لحكومته أو جنده . وفيها تزوج مدام دي منتنون سنة 1682 بعد وفاة ماري تريز ، وصارت فرسايل بعد ذلك مقراً لملوك فرنسا . وفيها عقدت أكثر الاجتماعات السياسية الهامة في أثناء القرنين الماضيين ، قبل الثورة وبعدها وتقلبت على أحوال عسر ويسر . وفيها أمضيت معاهدة سنة 1783 بين فرنسا وإنكلترا على أثر استقلال أمريكا . وفيها نزل وليم الأول إمبراطور ألمانيا من 5 أكتوبر سنة 1770 إلى 6 مارس سنة 1871 بعد تغلّبه على الفرنساويين وتُوِّج فيها إمبراطوراً على الألمان .

متحف فرسايل

هو في قصر فرسايل ، مسكن لويس الرابع عشر نفسه . والقصر وحده بما يكتنفه من الحوادث التاريخية يعد من أهم التحف ولبنائه تاريخ طويل . وهو كالبلد الكبير بما فيه من القاعات والغرف والدهاليز والأروقة والمراسح والمجالس . يسع نحو عشرة آلاف نفس . طول واجهته الكبرى 580 متراً فيها 375 نافذة . تم بناء القصر في القرن السابع عشر بما فيه من الرياش الفاخر ، والتحف التاريخية أو الصناعية . وأنشؤوا بين يديه الحدائق التي تأخذ بالأبصار بما فيها من البرك والأشجار والغياض والبساتين . فلما كانت الثورة الفرنساوية بيع الرياش ونُقِل ما كان هناك من الصور الجميلة إلى اللوفر . لكن لويس فيليب أعاد إلى فرسايل رونقها ، فجعل قصرها هذا متحفاً جمع فيه أهم مفاخر الفرنساويين التاريخية والفنية سماه «المتحف الوطني» ويعرف أيضاً بمتحف فرسايل .

ويقسم هذا المتحف إلى قسمين كبيرين «1» قاعات لويس الرابع عشر وأهله وخلفائه ، فهي كالمتحف بإتقان صنعها ، وما على جدرانها وسقوفها من النقوش البديعة . «2» المتحف التاريخي الذي أنشأه لويس فليب وفيه عدد عظيم من الصور والتماثيل أكثرها متوسط القيمة من حيث الصناعة . لكنه أراد أن يمثل بها تاريخ فرنسا بحسب أطواره ورتب ذلك في قاعات عديدة لا يكاد يجد الزائر وقتاً كافياً للمرور فيها فضلاً عن درسها فنكتفي بالإشارة إلى أهم ما فيها .

ففي الجناح الشمالي من القصر كنيسة كان يصلّي فيها أهل ذلك القصر متقنة النقش والوضع ، عليها كثير من النقوش الرخامية المذهبة والصور الدينية . منها صورة القيامة في وسط القبة . وعلى كلّ من المذابح صورة . وقاعات الصور التاريخية تقسم بحسب العصور أو الأدوار . منها قاعات تاريخ فرنسا من كلوفيس إلى لويس السادس عشر ، فيها صورة زيتية كبيرة تمثل أهم حوادث التاريخ في تلك المدة لأشهر المصورين مثل دلاروش ، وروجيه ، وشيفر ، وغيرهم ، وقاعات الحروب الصليبية تمتاز بإتقان جدرانها وما عليها من النقوش مع شارة قواد تلك الحروب «الأرمات» فضلاً عن الصور الكبرى التي تمثل الحوادث التاريخية الهامة . بينها صورة تتويج إمبراطور القسطنطينية سنة 1204 وأخرى تمثل واقعة عسقلان سنة 1177م بين الإفرنج والمسلمين . وصورة معركة طولوسة بأسبانيا بين الإفرنج والعرب سنة 1212م . وصورة طواف الصليبين حول أورشليم سنة 1099م . وفي إحدى هذه القاعات باب على النمط القوطي من مصنوعات فرسان رودس أهداه السلطان محمود الثاني لفرنسا سنة 1836م . ومن الصور التاريخية هناك صورة حصار رو دس سنة 1480م ، وأخذ القسطنطينية سنة 1204م نقلاً عن صورة في اللوفر . وصورة فتح القدس سنة 1099 وقطع الصليبين البوسفور سنة 1097 وهم زاحفون على الشرق لفتح بيت المقدس .

وقاعات خاصة بصور تاريخية من سنة 1794-1830 بينها صورة نابليون الأول مجروحاً في راتسبون سنة 1809 وصور أخرى عديدة يضيق المقام عن ذكرها .

وفي قاعات الحوادث التاريخية العصرية في القرن التاسع عشر عدة صور تهمُّ قراء العربية على الخصوص ؛ لأنها شرقية تمثل وقائع الفرنساويين مع العرب في الجزائر تحت قيادة الأمير عبد القادر المشهور . فإنه حاربهم أعواماً طويلة ، حتى كادوا ييأسون

من قهره ثم فقوا ذلك[1] بالاستيلاء على «الزملة» وهي بلد نقال فيه ما يحتاج إليه الجند من الصناع والعمال والخفر وفيها أهله وأعوانه وأمواله وخزائنه ومؤونته ، والزملة عبارة عن خيام تحمل على الجمال في الصحراء ويحمل معها كلّ ما يحتاج إليه القوم من المؤونة والذخيرة . فإذا أرادوا النزول نصبوا الخيام بترتيب معين فيعرف كلّ واحد خيمته وعمله . وقد عمد الأمير عبد القادر إلى اختراع هذه الزملة في أواخر حربه مع الفرنساويين بعد أن أصبحت بلاد الجزائر تتقد بالحروب فلم يعد يأمن الإقامة في مكان .

فلما تعبت فرنسا من مناهضته أغرت صاحب مراكش على معاضدتها . وعلم عبد القادر في أواخر سنة 1847 بقدوم المراكشيين لغزو زملته ، ولم يكن فيها أكثر من خمسة آلاف ، والمراكشيون يزيدون على خمسين ألفاً . فخاف الأمير على رجاله وإن لم يعرف الخوف قبلاً . فعادت إليه نخوته فهجم ليلاً بذلك الجيش القليل ، وفرق شمل المراكشيين . ثم عادوا فاجتمعوا ثانية فهاجموه فطاردهم وظهر عليهم لكنه خسر جانباً من رجاله ؛ فرأى الانسحاب أفضل له ، فرجع إلى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله إليه أن الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاث ساعات منه ، ورأى أن جيشه قد أنهكه السفر والحرب ، فخشي أن يقع هو وزملته في أيدي الفرنساويين لأنه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه- ولكنه عاد فرأى أن يبذل قصارى جهده ، فجمع إليه رجاله فخطب فيهم مفصحاً عمّا هم فيه من الضيق وقال «أراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه ، وبذلتم جهدكم في معاضدتي . و أما الحالة الراهنة فتقضي علينا بالتسليم للعدو ، وعندي أن التسليم للفرنساويين خير من التسليم للمراكشيين فما رأيكم؟»

فأجابوه أنهم على رأيه ، فنظر إليهم فإذا هم عدة من أحسن الرجال وأشدهم ، وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة ، فشق عليه أن ينتهي جهاده بهذا التسليم للعدو ولكنه أذعن لحكم الضرورة قسراً ، وهو غير خائب لأنه جاهد الجهاد الحسن أكثر من 15 سنة حتى نفدت الحيلة .

وعلى ذلك تم التسليم ، لكن المصور تصوّر هجوم الفرنساويين على الزملة وعبد

(1) كذا وردت وأحسبها : وفقوا إلى ذلك .

القادر غائب فمثل ذلك أحسن تمثيل في صورة طولها عدة أمتار شاهدناها في إحدى الغرف من قاعات متحف فرسايل ووقفنا عندها ساعة نتأمل ما تولى رجال عبد القادر من الذعر لما رأوا خيول الأعداء تكاد تأخذهم ، فبرزت النساء من الخيام مذعورات وأخذ الخدم في مساعدتهن في ركوب الجمال التماساً للفرار . وهرب بعض الأتباع ، وفيهم اليهود أصحاب خزينة عبد القادر . ونفر ما كان معهم من الحيوانات الأهلية وبينها الغزلان طلبت البرية . وبان الرعب في كل حيّ ، وظهر الاضطراب في كل شيء فقلبت الخيام وأجفلت الجمال ، وذعر الأطفال ، وبكت النساء مما يستوقف البصر .

وفي تلك القاعات صورة نافرة تمثل نابليون وقد أطلق سراح عبد القادر في أمبواز سنة 1852 . وصورة زيتية لحصار قسنطينة سنة 1837 ، وصورة أخرى لمعرض في المكسيك سنة 1838 ، وصور عديدة لوقائع حربية في القرم سنة 1854 من جملتها أخذ ملاكوف ، ومعركة ألما[1] ، ومعركة سلفرينو ، وغيرها ، وكلها كبيرةالحجم .

والقسم الأوسط من القصر تسمى قاعاته بأسماء آلهة اليونان كالزهرة ، والمريخ ، وأبولون ، وغيرها . فيها صور زيتية وستائر مصورة نسجاً مما يسمى» غوبلين» أكثرها تمثل حوادث تاريخية فرنساوية من جملتها ستارة تمثل الكونت فوانت في حضرة لويس الرابع عشر باسم ملك أسبانيا . وأخرى تمثل اجتماع لويس المذكور ، وفيليب الرابع ملك الأسبان . وأخرى لزواج لويس الرابع عشر بماري تريز ، وغير ذلك . ومنها قاعة السلم . جدرانها مبطنة بالرخام وعليها أمثلة من الأوسمة البرونزية . وقاعة الزجاج طولها 72 متراً ، وعرضها عشرة أمتار ، وعلوها 13 متراً مزخرفة زخرفة باهرة . لها واجهة من زجاج تطل على حديقة فرسايل ، وعلى جدرانها صور عديدة تاريخية لأزمنة مختلفة يطول بنا شرحها . وهناك غرف مختلفة لجلوس الملك أو طعامه وعلى جدرانها صور بينها صور تمثل وقائع «دونكي شوت» . وهناك ساعة رقاصة كبرى تدل على الساعات والأيام والأشهر .

ومنها غرفة الرقاد للويس الرابع عشر بفراشه وخزانته وكراسيه وسائر ما يلزم .

---

(1) ألما : اسم نهر في القرم ، وفي معركة ألما انتصر الفرنسيون والإنكليز على الروس سنة 1854م .

وفيها مات سنة 1715 بعد أن حكم 72 سنة .

وقاعات الملكة مصورة الجدران ، وفيها كانت تنام الملكة ماري تريز حتى توفيت سنة 1683 وماري لزينسكي ، ثم ماري أنطوانيت ، وفيها صورة هذه الملكة وعدة ستائر»غوبلين» . ومنها قاعة خاصة باستقبال الأعيان كانت الملكة تستقبلهم فيها بأوقات معينة وعلى جدرانها ستائر إحداها تمثل زيارة لويس الرابع عشر لمعمل هذه الستائر وقاعة عرس الملكة وقاعات أخرى لمدام دي منتنون وغيرها .

وفي الجناح الجنوبي من القصر قاعات عديدة للصور التاريخية . منها قاعة المعارك فيها صور أشهر المعارك الكبرى في جملتها معركة تورس[1] بين العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، والإفرنج بقيادة شارل مارتل سنة ٧٣٢م وهي التي فاز بها الفرنساويون وردوا العرب عن أوربا .

وصورة شارلمان في بادربون يستقبل وفود ويتيكند يقدمون الطاعة سنة 785م وصور أخرى تمثل الكونت أندس يدفع النورمنديين عن باريس سنة 885 م ومعركة بوفين سنة 1214 ، ووصول هنري الرابع إلى باريس سنة 1594 ، ومعركة ريفولي سنة 1797 ، وواقعة أوسترايتس سنة 1805 ، ويانا سنة 1806 ، وواغرام سنة 1809 ، وجملة ما في هذه القاعة 34 صورة و50 تمثالاً نصفياً لكبار الملوك والأمراء .

وفي الطبقة العليا من هذا الجناح قاعات عديدة بعضها خاص بالثورة الفرنساوية فيها صور أهم حوادثها وأشهر رجالها . مثل الاحتفال بالإخاء الوطني سنة 1790 ، وصور مدام رولان وماري أنطوانيت في الهيكل ، ومقتل مرات ، وتمثال نصفي لميرابو ، وخطيب تلك الثورة ، وتمثالا لافاييت[2] ولويس 17 . وهناك قاعة خاصة لتصوير أعمال نابليون ، الأول وحوادث عائلته ومشاهير الأمة في عهده . منها صورة تمثل قواد الحملة المصرية صورت سنة 1799 ، وغير ذلك شيء كثير يختص بنابليون وحوادثه

---

(1) المعركة التي جرت بين العرب والإفرنج هي معركة بواتيه ، أو معركة بلاط الشهداء . أما تورس فلم أجد لها ذكراً .

(2) لافاييت : قائد وسياسي فرنسي حارب في سبيل استقلال الولايات المتحدة ، ثم شارك في الثورة الفرنسية . (1757 – 1834) .

المدهشة في بيته وفي جيشه وأسفاره وحروبه وأولاده . وفي قاعات القسم الأوسط من هذا القصر شيء كثير من الرسوم لتمثيل الحوادث التي جرت لفرنسا في القرن الثامن عشر . في جملتها صورة كبيرة تمثل وصول سفير عثماني اسمه محمد أفندي إلى قصر التويلري سنة 1721 . وصورة أخرى لوصول سعيد باشا سفير الباب العالي سنة 1742 وبينها غرف لنوم ولي العهد وأمه وغيرهما من أهل البلاط .

تريانون

وفي فرسايل غير هذا القصر قصران يعرف كلّ منهما باسم تريانون أحدهما الأكبر ، والآخر الأصغر كان يتردّد إليهما لويس الرابع عشر مع بعض العائلات أو الأعوان ، وهما متقنا البناء وفيهما تحف تاريخية أو فنية . ففي الكبير منهما تحف من الرياش الثمين النادر . ومن جملة ذلك كؤوس من الوهج» الملكيت» أهداها القيصر إسكندر الأول إمبراطور روسيا إلى نابليون الأول . وفي التريانون الكبير أيضاً معرض المركبات فيه ثماني مركبات إحداها لنابليون الأول ركبها لما تعين قنصلاً أول ، وأخرى ركبها يوم زواجه . ومركبة قلدوا بها مركبة شارل العاشر وغيرها .

وفي فرسايل حدائق غناء جرّوا إليها الماء في بحيرات مديرة بأنابيب إذا فتحت تفجر الماء من أفواهها وصعد في الهواء على أشكال مختلفة وارتفاعات متفاوتة . وهم يحتفلون بفتحها في أوقات معينة من النهار يشهد الناس منظرها ممّا يشرح الصدر وينزه الخاطر ، وقد يجتمع الألوف وعشرات الألوف في بعض الأيام لهذه الغاية .

قصر ماليزون

وعلى عشرة كيلو مترات من باريس قصر ماليزون في ضاحية من أجمل ضواحي باريس فيها الحدائق والغياض على أجمل أسلوب ، واشتهر هذا القصر بجوزفين امرأة نابليون لأنها اعتزلت فيه بعد طلاقها سنة 1809 إلى وفاتها سنة 1814 . امتلكته ماري كريستين ملكة أسبانيا سنة 1842-1861 وأقامت فيه الإمبراطورة أوجيني زوجة

نابليـون الثـالـث ردحـاً من الزمن . وفي سنة 1900 اشـتـراه داود أوزيريس المثـري الفرنساوي الشهير «توفي سنة 1907» أهداه للأمة مع ما يحيط به من البساتين ، ليس أدعى إلى التهيب والاعتبار بمصير الإنسان من زيارة هذا القصر ومشاهدة ما لا يزال فيه من الرياش والأدوات كما أن في زمن تلك الإمبراطورة السيئة الحظ زوجة أعظم القواد وأطمع طلاب المجد . فإنك تسمع من السكينة السائدة هناك نداء يخترق الأسماع ويستولي على القلوب «أن الإنسان مهما بلغ من جبروته وعظمته لا يبقى له غير أعماله ، ولا يذكر له منها إلا ما أفاد به بني نوعه» . مررنا في غرف ذلك القصر الفخيم لا نسمع فيه غير وقع أقدامنا وكلٌ منا مطرق يتأمل . مررنا بقاعة الاستقبال فقاعة الطعام فغرف النوم والكتابة والبلياردو والموسيقى ، وشاهدنا الخزائن والمقاعد والستائر والأرائك والمناضد . وعلى جدران القصر الصور الزيتية تمثل المشاهد الجميلة ، والحوادث الهامة – جيء بها إلى ذلك القصر خدمة لأهله ولكنهم ذهبوا وبقيت هي .

شاهدنا طاولة نابليون التي كان يكتب عليها بيده ، وخزانة الكتب التي كان يرجع إلى كتبها عند التحقيق . والقلم الذي كان يقبض عليه بأنامله . وفي قاعة البلياردو صور في جملتها صور حملها بونابرت من مصر سنة 1799 منها صورة تمثل بعض المشائخ بألبستهم العربية المصرية جاؤوا لمقابلة بونابرت وعدة سجاجيد جميلة .

وفي القاعة التي كانت الإمبراطورة جوزفين تستقبل فيها الزائرين سجادة ثمينة . وفي غرفة الموسيقى آلات موسيقية كانت تستخدمها الإمبراطورة لترويح النفس ، وطاولة كان يلعب عليها بونابرت . وقس على ذلك سائر ما هنالك من الأثاث والأدوات والصو منها صورة أم نابليون ، ومنسج جوزفين ، وأدوات نابليون ، وتمثاله وهو صغير . وعلبة شغل لجوزفين هدية من مدينة باريس . وسرير سفر لنابليون ، وسرير جوزفين مجلل بالأطلس وصورتها سنة وفاتها . وعلى أكثر الكراسي الحرف الأول من اسمها « "Jوخزانة فيها مظلاتها ونعالها وجزادينها .

لا تقدر وأنت تنظر إلى تلك البقايا إلاّ أن تتصور نابليون واقفاً أو جالساً هنا وهناك وجوزفين وما يخطر لها في عزلتها .

ونختم وصف باريس ومتاحفها وأحوالها بما شاهدناه فيها من تقدم السوريين في التجارة والأدب والفنون الجميلة . لقينا فيها عشرات من أصحاب المتاجر ، وقد جارّوا الفرنساويين بالتجارة ، ولهم منزلة رفيعة بين علية القوم وأحرزوا ثقة أصحاب المعامل والمصارف . ولأكثرهم معاملات واسعة مع الشرق والغرب ، وأكثر اشتغالهم مع سوريا وأميركا الشمالية والجنوبية يبعثون إليها السلع من مصنوعات باريس على اختلاف أصنافها . فمن البيوت التجارية السورية في باريس محلات رحيم ، وبو شديد ، وشحادة ، وسليمان ، ودقرت ، وشقير ، وبركة ، وداود ، وجاسر إخوان ودوماني ، ومانوك ، وقزي ، وبيجاني ، وشخيري ، وزوين ، ويانسوني ، وحوس «فرع لمحل صيدناوي» وغيرها من البيوت التي تتعاطى أصناف التجارة . وقد اختص بعضهم بتجارة الجوهرات أشهرهم : كساب ، ونصبة ، وأبو حمد . وبالعطريات محل بشارة ملحمة ، وله شهرة واسعة في فرنسا وإنكلترا بما يصطنعه من العطريات المعروفة باسمه ، وقد نال جوائز السبق في المعارض الصناعية . وعرفنا من الماليين الكونت قريصاني مدير البنك الفرنساوي المصري في باريس وهو من البنوك الكبرى وله فرع في مصر . وقس على ذلك بما يدل على اقتدار الشرقي على مجاراة الغربي إذا تساوت الأسباب والوسائل .

بما يوجب الفخر أيضاً أننا عرفنا في باريس نفسها غير واحد من الأدباء السوريين يجارون أدباء فرنسا في آداب لسانهم يكتبون في أكبر جرائدهم السياسية في أهم المواضيع الحيوية أو يؤلفون الكتب ، وينظمون الشعر بالفرنساوية بما لا يقل عمّا يفعله أدباء فرنسا أنفسهم . منهم شكري غانم ناظم رواية عنترة ، وقد قبل تمثيلها في الأوبرا الفرنساوية . وخير الله خير الله صاحب كتاب سوريا ، يكتب المقالات السياسية في جريدة الطان الشهيرة . والدكتور جورج سمنة له مجلة علمية تصدر بالفرنساوية بباريس اسمها Correspondences d'Orient وميشيل بيطار مترجم رواية العباسة أخت الرشيد . وهناك طبقة من أصحاب الفنون الجميلة يشتغلون للإفرنج أنفسهم .

منهم موريس نجار يؤلف القطع الموسيقية للأجواق الفرنساوية التمثيلية وهو يرتزق هناك بهذه المهنة . ووديع صبرا من أصحاب المواهب الموسيقية وقد عرفه الباريسيون . وفيليب موراني مصور فني يشتغل بالتصوير في باريس . وغير هؤلاء من الأدباء وأصحاب الفنون الجميلة . وقد اقتصرنا على الشرقيين المشتغلين بالفرنساوية للفرنساويين في باريس . ونعرف طائفة من المشتغلين بهذه اللغة وآدابها بمصر والشام سنعود إلى ذكرهم في فرصة أخرى . وقد يكون هناك كثيرون لم نطلع على آثارهم أو لم تبلغنا أخبارهم . وإنما أردنا تقرير حقيقة يسر تقريرها كلّ شرقي نعني «أن الشرقيين إذا توفرت لهم الأسباب جاروا أرقى الأمم المتمدينة» .

القسم الثاني: إنكلترا
نظام حكومتها

إن نظام الحكومة الإنكليزية من النوع الملكي المقيد ، وإنكلترا من أعرق الأمم في الدستور ، وهي أم الحكومات الدستورية . يرجع الحكم فيها إلى رأي الأمة فلا تسن الحكومة قانوناً ، أو تنفذ رأياً إلا بعد موافقة الأمة عليه . وينوب عن الأمة مجلسان يباحثان الحكومة ويجادلانها ، أو يقترحان عليها هما : مجلس الأعيان ، ومجلس العموم ، ويُعبَّر عنهما بالبرلمان . تأسَّسا في أوائل القرن الرابع عشر . ويلتئم البرلمان بإيعاز الملك بعد إشارة المجلس الخصوصي قبل وقت اجتماعه بخمسة وثلاثين يوماً على الأقل . وجرت العادة أن يوالي اجتماعه بين فبراير وأغسطس من كل سنة للنظر فيما يُعرض عليه من الشؤون . وبعد المباحثات والاقتراحات يصدر قراراته بأغلبية الأصوات .

يتألف مجلس الأعيان من الأشراف ويبلغ عدد أعضائه نحو 650 عضواً وتنال عضويته إما بحق الإرث أو باقتراح الملك أو باستحقاق المنصب كالأساقفة ونحوهم أو بالانتخاب . ويتألف مجلس العموم من أعضاء ينتخبهم عامة الشعب ؛ لينوبوا عنهم ، وفيهم من ينوب عن المقاطعات أو المدن المراكز أو نحوها من إنكلترا وسكوتلاند

وأيرلندا . ويشترط في المنتخب أن يكون بالغاً رُشْدَهُ وأن يكون اسمه مقيداً في سجل المنتخبين . وللحكومة شروط في نيل حق الانتخاب لا محلّ لها هنا . ويبلغ عدد المنتخبين نحو سدس الأهلين ، ثلاثة أرباعهم من إنكلترا والباقون من اسكوتلاندا وأيرلندا . وانتخاب أعضاء البرلمان سرّي ، ولا يُنْتَخَب عضو لم يتجاوز سنه 21 سنة ، ولا يجوز انتخاب أحد من الأشراف لعضوية مجلس العموم .

والقوة التنفيذية في الدولة الإنكليزية في قبضة الوزارة أو مجلس الوزراء ، لكنها تصدر باسم جلالة الملك . على أن هذا المجلس يتوقف تعيينه على مجلس العموم فهو يعين رئيس الوزارة بأكثرية الأصوات ، وهذا يشكل الوزارة . ولذلك كانت الحكومة في أيدي الشعب . ومجلس الوزراء أو النظّار عندهم مؤلف من 18 وزيراً كل منهم يتولى رئاسة دائرة من دوائر الحكومة وهي ثماني عشرة دائرة أو وزارة : الخزينة ، والعدلية ، والختم الخاص ، والخارجية ، والهند ، والداخلية ، والمالية والمستعمرات ، والحربية ، البحرية ، وأيرلندا ، والتجارة ، والمحلية ، والمعارف ، وسكوتلاندا ، والزراعة ، والأسماك ، والبريد ، ولانكستر . على كل منها رئيس .

عظمتها وعمرانها

إن المملكة الإنكليزية بما يلحقها من المستعمرات أعظم الممالك المتمدنة وأكثرها سكاناً وأوسعها ثروة . وهي تتألف من بريطانيا العظمى ، وتشتمل على إنكلترا ، وويلس ، وسكوتلاندا ، وأيرلندا . ومن مستعمراتها الكثيرة في القارات الخمس . فمساحة بريطانيا 121391 ميلاً مربع ، وعدد سكانها نحو 45000000 نفس . وأما المستعمرات فإنها أوسع من ذلك كثيرا ، تقدر مساحتها بأضعاف مساحة بريطانيا . فهي تزيد على 11559000 ميل مربعا وعدد سكانها يزيد على ستة أضعاف سكان بريطانيا أي نحو 300,000,000 نفس تتفرق على هذه الصورة :

مستعمراتها	مساحتها بالأميال	عدد سكانها
في أوروبا	119	213615
في آسيا	1637215	238664609
في أفريقيا	2880311	43467615
في أميركا	3865265	7426463
في أوستراليا	3176022	5120996
المجموع	11558932	294893298

وتناهز ميزانية الحكومة الإنكليزية الآن نحو 200 مليون جنيه تُجمع من الضرائب المختلفة ، وتُنفق في مصالح الحكومة والجندية والديون وغيرها .

ثروة الأمة الإنكليزية

وإذا نظرنا إلى ثروة الأمة الإنكليزية رأينا ما يدهش العقل . وقد عقد أحد الباحثين فصلاً ضافياً في مجلة القرن التاسع عشر الإنكليزية في هذا الموضوع : خلاصته أن تجارة بريطانيا الخارجية بلغت في العام الماضي نحو 1800,000,000 جنيه أكثرها حمل في البحار . وأن ثروة الأمة الإنكليزية نحو 25,000,000,000 جنيه . ودخلها في السنة نحو 3,300,000,000 جنيه . وما من دولة تداني الأمة الإنكليزية في الثروة . والمشهور أن الأمة الفرنساوية تدانيها أو تفوقها . ولكن كاتب المقالة المتقدم ذكرها يجعل ثروة فرنسا نصف ثروة إنكلترا ، أي نحو 21,000,000,000 جنيه ويقول إن أقرب الأمم ثروة إلى الإنكليز الولايات المتحدة الأميركية ، فإنه يقدر ثروتها بنحو 21,000,000,000 جنيه .

وأكثر ثروة الأمة الإنكليزية في بريطانيا يليها الهند ، وكندا ، وأوستراليا على هذه النسبة :

البلد	دخلها	ثروة الأمة
إنكلترا وويلز	1740000000	13716779000
سكوتلاندا	173500000	1451625000
أيرلندا	103000000	714279000
الهند	608000000	3600000000
كندا	259000000	2072000000
أوستراليا	164000000	1312000000
جنوب أفريقيا	75000000	600000000
نيوزيلاند	40000000	320000000
الحمايات وغيرها	170000000	1200000000
الجملة	24986683000	3332500900

وقابل الكاتب بين دخل الأمة الإنكليزية وما تنفقه في الدفاع عن حوزتها، فبلغ نحو ثلاثة جنيهات عن كل مئة جنيه من الدخل أي 102,000,000 جنيه.

ويهمنا من هذه المملكة الواسعة في هذا المقام لندن العاصمة لأننا درسناها أكثر من سواها، وفيها المتاحف والآثار سنصفها مع بعض البلاد الأخرى فيما يلي:

حالتها العلمية

التعليم في إنكلترا ثلاث درجات: الابتدائي والثانوي والعالي، فنقتصر هنا على وصف التعليم العالي في الكليات والجامعات. وأقدم هذه المعاهد العلمية بني خارج لندن. وأقدم جامعات لندن أنشئت سنة 1836 وظلت هذه وحيدة في لندن إلى أوائل القرن الحاضر فأنشئ سواها كما ستراه. وأما خارج لندن فيرجع تاريخ بعض الكليات إلى الأجيال الوسطى. وأرقاها جميعاً جامعتا أكسفورد وكامبردج، وسنعود إليهما عند وصف هذين البلدين من رحلتنا. أما سائر الجامعات والكليات في بريطانيا فأقدمها أنشئ في إسكوتلاندا في القرن الخامس عشر.

وهذا جدول بأسماء جامعات بريطانيا وكلياتها حسب سني إنشائها :

اسم الجامعة	مقرها	سنة تأسيسها
جامعة سنتاندرول	اسكوتلاندا	1411
= كلاسغو	=	1450
= أبردين	=	1494
= أيدنبرج	=	1582
= دبلن	ايرلندا	1591
= درهام	إنكلترا	1831
= لندن	لندن	1836
= فكتوريا		1880
= برمنهام	برمنهام	1900
= لفربول	لفربول	1903
= ويلس	ويلس	1903
= ليدس	ليدس	1904
كلية جامعة لندن	لندن	1905
جامعة شفيلد	شفليد	1905
جامعة برستول	برستول	1909
= أيرلندا الوطنية	دبلن	1909
= بلفاست	ايرلندا	1909

وهناك جامعات وكليات أخرى في سائر مدائن إنكلترا الكبرى مثل منشستر وغيرها . وأكثر الجامعات مؤلف من كليات تختلف عدداً باختلاف أهميتها . ففي جامعة لندن 24 كلية وفي جامعة أكسفورد 22 كلية وفي كامبردج 17 كلية ، وتختلف أيضاً في عدد الأساتذة والتلاميذ . ولكن يقال على الإجمال إن الأساتذة في تلك الجامعات يتجاوزون بضعة آلاف ، والتلامذة يعدون بعشرات الألوف . ولأكثر هذه

الجامعات أوقاف متوارثة يُنفق من ريعها على التعليم ، وفيها المعامل الكيمياوية ، والبكتيريولوجية والمعارض التشريحية ، والجيولوجية ، والنباتية ، والحيوانية وغيرها . أما المدارس الابتدائية والثانوية فيضيق المقام عن وصفها .

ومعظم هذه المدارس تنفق الحكومة عليها على أن جمعيات التعليم كثيرة في إنكلترا مما أنشئ لتهذيب الناشئة من الفقراء : منها جمعية في لندن تسمى «لله وللوطن» أنشئت منذ 47 سنة لجمع اللقطاء والمتشردين من الذكور والإناث وتعليمهم وتربيتهم وتثقيف عقولهم . وهي تجمع الإعانات من أموال المحسنين . وقد بلغ المال الذي جمعته إلى الآن نحو 4,000,000 جنيه منها 235,000 جنيه جمعت في السنة الماضية . وبلغ عدد الذين آوتهم من الأطفال والمساكين في السنة المذكورة 9049 غلاماً ، وهي تعتني بهؤلاء المساكين وتعلمهم الصنائع ، وتبعث بهم إلى المستعمرات ولا سيما كندا . وتشترط في قبول المعوزين أن يكونوا مقطوعين لا نصير لهم . ولاّ يقبل منهم إلا ما بين الطفولية إلى السنة 14 ولها بضعة عشر مركزاً في لندن والولايات المتحدة . ورئيسها أسمه الدكتور برناردو .

وللإنكليز فضل كبير على العلم الحديث ، ولاسيما بما يتعلق بالاختراعات المحسوسة التي توقف عليها تسهيل المواصلات ، وتقريب المسافات كالسكك الحديدية ، والآلات البخارية ، وكثير من الصنائع الحديثة كالنسيج والغزل والخياطة . ومنهم شارب دَرْوين صاحب مذهب النشوء والارتقاء ، وشكسبير مؤسس نهضة الأدب العصري ، وولتر سكوت ، وملتن . غير أصحاب الاكتشافات العلمية في الطب ، والكيمياء ، والطبيعيات ، وعلم الحياة ، والاجتماع ، ومنهم : ليستر ، وجنر ، وهكسلي ، وسبنسر . غير رجال السياسة والإدارة أصحاب الأدمغة الكبيرة .

ومن قبيل الحالة العلمية تكاثر المكاتب ، وغرف المطالعة وهي عديدة . وكذلك الصحافة فإن في لندن وضواحيها نحو 400 صحيفة بعضها يطبع مئات الألوف من النسخ كل يوم – غير المراسح للتمثيل ، والمعارض العلمية ، والجمعيات العلمية والأدبية والأكاديمية وغير ذلك مما يطول شرحه .

وفي إنكلترا اليوم حركة فكرية ، وإقدام على الكتابة والتأليف في المواضيع المختلفة ، وقد أحصى بعضهم أشهر الكتاب الإنكليز المعاصرين ورتبهم حسب

المواضيع وخلاصة ذلك كما يأتي :

عدد الكتّاب	عدد الكتّاب
125 في الأدب	35 في التاريخ الديني
172 في التراجم والمذكرات	52 في تاريخ إنكلترا
57 في الدين	40 في التاريخ الحديث
89 في التمثيل	120 في سائر التواريخ
16 في انتقاد التمثيل	120 كتاب الصحف
35 في الاقتصاد السياسي	60 في القضاء
60 في التهذيب	150 في اللغة الإنكليزية وآدابها
55 في لآثار القديمة	200 في سائر اللغات
25 في هندسة البناء	20 في الموسيقى
55 في الفنون الجميلة	45 في الفلسفة
570 في الفكاهات والروايات	180 في الشعر
48 في السياسة	49 في علم العمران
38 في الطب	50 في الصيد واتوابعه
49 في التاريخ الطبيعي	140 في اللاهوت
15 في الرياضيات	145 في السياحات ونحوها
12 الجيولوجيا	3027 «الجملة»

لندن

هي عاصمة المملكة الإنكليزية طولها 14 ميلاً ، ومتوسط عرضها نحو عشرة أميال ، ومساحتها بالتقريب نحو 130 ميلاً مربعاً .فيها 8000 شارع إذا اتصلت حتى يتألف منها شارع واحد كان طوله 3000 ميل . وأحصوا أبنيتها بنحو 650,000 بناء ، منها :

1500 كنيسة ، و 6500 محل عمومي و1700 ناد و500 أوتيل . وهي أكثر مدائن العالم سكاناً . يقدر سكانها بنحو 6,000,000 نفس أكثرهم من الإنكليز طبعاً . لكن فيها جماعات كبيرة من الأمم الأخرى . حتى قالوا إن فيها من الاسكوتلانديين أكثر مما في أبردين ، ومن الأيرلنديين أكثر مما في دبلن ، وفيها من اليهود أكثر مما في فلسطين . ومن الكاثوليك أكثر مما في رومية . وسنعود إلى وصف المتاحف والتحف ونكتفي هنا بذكر الفرق بين لندن وباريس :

الفرق بين لندن وباريس

(1) إنهما توأمان في الفخامة والعظمة ، ولكن لندن أوسع مساحةً وأضخم أبنيةً ، وأظلم جوّاً . وأما باريس فإنها أجمل منظراً وأكثر زهواً وأشرق سماءً وأصفى هواء .

(2) ليس في لندن أماكن للجلوس في سبيل اللهو أوالراحة كالقهوات والبارات التي ذكرناها في باريس . فالغريب إذا احتاج إلى الراحة في غير المنازل ليس له إلاّ المقاعد في الحدائق العمومية ، أو يمر بالشوارع للفرجة . وفي لندن حانات كثيرة لأنواع الخمور ، وحوانيت لشرب الشاي أو القهوة أو غيرهما من المرطبات أو المخدرات . لكنها كالمخازن التجارية تطلب ما تريده وتتناوله ، وتنصرف كما تفعل لو أردت تناول الطعام في مطعم . وليس عندهم مجالس للتسلية إلى موائد كما في القاهرة مثلاً . والقاهرة من حيث القهوات وأماكن اللهو كثيرة الشبه بباريس . على أنّ بعضهم أنشؤوا في لندن أماكن من هذا القبيل تشبه ما في باريس لكنها قليلة ، وليست على قوارع الطرق .

(3) أن الماشي في شوارع باريس إذا اقتضى أن يوسع لمقبل عليه خوفاً من التصادم ، تحوّل نحو اليمين كما يفعل أهل القاهرة . فالمركبات والدواب ، والناس يتحولون في شوارع باريس إلى يمينهم أما في لندن فبعكس ذلك . لأن المارة في شوارعها إذا تلاقوا تحوّل كل منهم إلى يساره . وقد نبهوا الناس إلى ذلك بألواح كتبوا عليها قولهم «إلى اليسار» فإذا تلاقى اثنان وتحول كل منهما إلى يمينه لا يتصادمان

وكذلك إذا تحوّلا إلى اليسار . أما إذا تحوّل أحدهما إلى يمينه ، والآخر إلى يساره فإنهما يتصادمان . ولذلك فالفرنساوي والإنكليزي إذا تلاقيا ، ومشى كلٌّ منهما على ما تعوّده في بلده لا بد من تصادمهما !

(4) ليس في لندن أماكن عمومية للفحشاء كما في باريس ؛ لأن الحكومة الإنكليزية تحظر على الناس الاتّجار بها . خلافاً لمعظم حكومات أوربا ، وقد أحسنت إنكلترا ويا حبذا لو اقتدت مصر بها في ذلك فأخذته عنها كما أخذت غيره من أسباب المدنية – ولكن مصر أباحت إنشاء تلك الأماكن اقتداء بفرنسا وغيرها من الدول التي تبيحه ، وقد أخطأت كما بيّنا ذلك في الهلال .

(5) إن هيبة التديُّن ظاهرة في لندن أكثر مما في باريس ، ولا سيما في أيام الآحاد . فإن تلك المدينة الضخمة التي تعج أسواقها بالناس عجيجاً في أثناء الأسبوع ، وقد بُسطت فيها البضائع وعُرضت السلع على قوارع الطرق تصبح في يوم الأحد خاليةً خاوية لا تجد فيها بائعاً ولا شارياً ولا صانعاً ولا عاملاً . وإنما يخرج الناس بعد الصلاة للنزهة في الحدائق العمومية أو غيرها في لندن وضواحيها .

وهكذا تفعل سائر مدن إنكلترا وقراها حتى السكك الحديدية فإن حركتها تخفّ في أيام الآحاد والأعياد . فالإنكليز من أكثر أمم أوربا تديناً ، وقد نفعهم ذلك في كثير من أحوالهم الاجتماعية .

(6) إن عادة البخشيش شائعة في لندن لكنها أقل كثيراً مما في باريس لقلة القهوات والملاهي كما قدّمنا .

(7) لا تجد في الشوارع العمومية من بنات الرصيف ما تجده في باريس .

وسنعود إلى لندن عند الكلام عن المتاحف والآثار .

نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع في إنكلترا يشبه على إجماله نظام سائر الممالك الأوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في إنكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هاك أهمها :

لا يخفى أن إنكلترا أم الحكومات الدستورية ، وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالأمة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط إحداهما بالأخرى - نعني الخاصة ، و العامة أو الشرفاء والعمال أو الأعيان والعموم ، وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الأرض وله السيادة هو وأهله على بلده ، وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شان أكثر أمم أوربا في عصر الإقطاع . لكن أكثرهم عدلوا عنه ، وساووا بين طبقات الأمة في الحقوق والواجبات . إلا الإنكليز فلا يزال لأهل السيادات القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض الأحوال السياسية والاقتصادية . ولكلّ من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شان الطبقة الأخرى . ونواب الأمة طبقتان في مجلسين مجلس الأعيان ، ومجلس العموم ، وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الأمم الأخرى لكنه عند الإنكليز مبنيّ على تسلسل الأرستقراطية من الأجيال الوسطى . ولا يزال كثيرٌ من الأرضين ملكاً للشرفاء يتوارثونها ، ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وإنما يبيعون مرافقها إلى أجل معين . والغالب أن يبيعك الشريف الأرض تملكها إلى 999 سنة ، فتدفع له ثمنها أو حق صيرورتها إليك بعد تلك المدة . . . ويبقى له عليك مال يتقاضاه كلّ سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم « Chief» ، وقد يحتالون في تمليك الأرض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الأقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين . فإذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكاً لأرض . عرفنا صديقاً لنا في منشستر ابتاع منزلاً من أحد الشرفاء بألفي جنيه دفعها معجّلاً ، وبقي عليه الأقساط «التشيف» نحو مئة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا أنه ينوي أن يستبدل الأقساط بألفي جنيه أخرى فيصير المنزل ملكاً له .

فالإنكليز عندهم الحرية والإخاء ، وليس عندهم المساواة . على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم ، لكن المساواة

الكليّة يبطئ الوصول إليها تأصل الأرستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية . حتى تراها في كثير من آدابهم الاجتماعية . ومن آثارها المحسوسة أنه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الأعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الأولى وعربات من الدرجة الثالثة . ولا تجد درجة ثانية في قطرهم إلاّ ما يتصل منها بالقطر الفرنساوية وغيرها على الحدود .

ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسد بها نفقات رعايتهم ، والقيام على حراستهم أو القضاء بينهم . لكن الإنكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الأمة . فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة ، ويعولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التاجر مبلغاً من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل . أصلها إعانة فرضتها الحكومة على الأمة للاستعانة بها على محاربة الفرنساويين سنة 1512 ، فقرر البرلمان يومئذ أن يدفع العامة 15/3 من دخلهم تلك السنة ، والكهنة الخمس . وفي سنة 1798 زادوها لمثل ذلك السبب . وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها ويعدلونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ، ولكنها نحو خمسة في المئة ، من الدخل أو شلن في الجنيه . ولا يدفع هذه الضريبة إلا الذي يبلغ دخله 160 جنيهاً في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك إلى 700 جنيه . فهؤلاء يعفونهم من بعض الضريبة . أمّا من زاد دخله على 700 جنيه فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو 32,000,000 جنيه في السنة غير ضرائب الجمارك ، وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والإذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها .

للعامة في إنكلترا مشاكل من اعتصاب وإضراب كما في فرنسا ، لكن للإنكليز عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الأرستقراطية في العهد القديم . لأن ربّ البلد «اللورد» كان يرى نفسه مسؤولاً عن حال أتباعه من حيث أسباب معائشهم . ولو تتبعت تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها ؛ لرايتها تنوعت وتعدلت طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كلّ إنكليزي مهما قلّ دخله . ثم أخذوا يعدّلونها حتى أعفوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على 160 جنيه . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على 700 جنيه . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى أن الأموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الأمة بلا تمييز بين الغني والفقير – أو هي لمصلحة الفقير أكثر ممّا لمصلحة الغني . وهي عناية بالعامة كالزكاة في صدر الإسلام تؤخذ من الأغنياء وتنفق في الفقراء .

والحكومة الإنكليزية تعدُّ نفسها وصية على الفقراء من رعاياها ؛ فتضع القوانين لمصلحتهم وتجبرهم على اتباعها . أو هي تتولى تنفيذها عليهم – لعلها تتقي اعتصابهم أو إضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في إنكلترا وضعته الحكومة لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه «National Insurance act» في 140 صفحة كبيرة . مآله ضمان مستقبل كل مستخدم في المملكة الإنكليزية سنه بين 16 و70 سنة يقل دخله السنوي عن 160 جنيها . وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله عن 160 جنيهاً في السنة . فتفرض على كل من هؤلاء أن يختزن من دخله مالاً يعينه في شيخوخته أو مرضه –جعلت ذلك إجبارياً لا يرى العامل مفراً منه بوجه من الوجوه . وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى والثانوية ، وكتاب المصارف والمتاجر ، وخُدّام المنازل ، وعمال المعامل ، وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقة المركبات والنوتية وغيرهم ، وكل عامل له رئيس يدفع له أجـرة .

وكيفية ذلك الضمان أن الحكومة طبعت أوراقاً كالسراكي[1] ، أو الاستمارات في اصطلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كلّ أسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل . فالرجل الذي تزيد أجرته على شلنين ونصف شلن في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الأسبوع ، ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات ، والحكومة تدفع بنسين . الجملة تسعة بنسات «نحو ثلاثة غروش ونصف» تلصق بقيمتها طوابع على الاستمارة ، وتختم ، وتقدم للحكومة كل أسبوع . وإذا كان العامل صاحب هذه الأجرة امرأة تُعامَل مثلَ معاملة الرجل إلاّ ما[2] تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلاً من أربعة ، ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته .

والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كلّ أسبوع وتختزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم إرادته . ومعظم هذا الضمان من رئيسه والحكومة ، وهي لا تضرها لكن تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط وأحكام تفصيلية لا محل لها . لكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال ، وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الأموال . فضلاً عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات أو المعامل . فان كلّ واحد منهم مكلّف بالتوقيع على السراكي أو الاستمارات بيده كل أسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو ألف .

أخلاق الإنكليز

الثبات والتعويل على الحقيقة : للإنكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الأمم يمكن تلخيصها بكلمتين نعني «1» «أنهم يجنحون في أعمالهم وشؤونهم إلى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر» «2» «أنهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم» فإذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تعليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم .

(1) السراكي جمع سركي : صك المعاش ، وهي بمثابة وثيقة دفع ، والكلمة دخيلة .

(2) كذا والصواب إلاّ أن ما تدفعه . . .

والإنكليزي هادئ الخلق ، يندر أن تتغلّب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور إرادته ، ولذلك تجدهم يبحثون في أهم المسائل وأحرج المشاكل ، ويتجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة . ويغلب في أدلّتهم أن تُبنى على العقل أكثر ممّا على العواطف . ويظهر لك الإنكليزي جامداً ، وقد ترى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر ، لكنك عند العمل تجده أثبت منك قَدَماً ، وأصبر على التعب ، وأقدر على المشاريع الكبرى . وترى فيه سكوتاً وطولَ أناة في موقف يستفزُّ سواه ويهيج غضبه ، وليس ذلك من بلادة في طبعه ، وإنّما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكترث بالصغائر بل يجعل همه الغرض الذي يسعى إليه ، لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات ولاسيما إذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها إذا لم يكن مبنيًا على حقائق محسوسة – فهو يهمه أن يصلّ حماره إلى العباسية ، ولا يلتفت إلى شقشقة[1] المكاري في أثناء الطريق .

الكبرياء والأنانية

ومن الأخلاق المشهورة عن الإنكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الأمم . وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . إن الإنكليزي معجب بنفسه ، يفتخر بدولته وأمته ، وينفرد عن سائر الأمم فلا يزاوجهم أو يختلط بهم إلاّ بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية . ولا عجب فإننا في عصر الانجلوسكسون كما كان العرب في إبان دولتهم والرومان قبلهم . ولكلّ أمة عصر إذا تفوقت فيه على سواها توهمّت امتيازها الفطري عليهم بالجِبِلّة الأصليّة – وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق إلا لمواهب فيها تمتاز بها عن سواها .

وممّا يوجّه إلى الإنكليز من الانتقاد أنهم أنانيون يحبّون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم ، وهو خلق فطريّ في الإنسان لا يختصّ بأمة دون أخرى . لكنه يظهر في

(1) شقشقة المكاري : ارتفاع صوته . والمكاري هو مؤجّر الدواب . والمقصود : أن الإنكليزي يهمه الوصول إلى الهدف .

الإنكليزي ؛ لأنه لا يبالي أن يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويعدونها من أسمى المناقب ، فهو لا يعرّض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنساويون مثلاً ، أو كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم . ولذلك كان العرب أسرع اختلاطاً بالفرنساويين مّما بالإنكليز .

ومن مقتضيات الجنوح إلى الحقائق أن الإنكليزي صريح في أقواله وأعماله ، لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله . فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء . ولكنه يعدّ المجاملة ضرباً من العبث ، فلا يزال يتجنّبك حتى يتعرّفك ، ويثق بك فيمدّ لك يده ، ويصافحك ، ويكون عند ذلك من أخلص الأصدقاء وأظرف الجلساء .

التربية الأدبية[1] والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق أيضاً ما تراه من ثبات الإنكليز في أفضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولاسيما الرياضة ، وهم قدوة الأمم فيها . وقد ألّفَ ديمولان الكاتب الفرنساوي كتابه سرّ تقدم الإنكليز ؛ ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والأخلاق والتعليم وغير ذلك . واختص غوستاف لابون أخلاق الإنكليز بالإطراء في كتابه «العوامل الأخلاقية في تكوّن الأمم» فالإنكليزي رأى بعين الحقيقة أن هذا الضرب من التربية مفيد له ؛ فاتّبعه ووضع له قواعد أساسها الفائدة الحقيقيّة بلا زخرف ولا تنميق . وزادهم ثباتاً فيها أنهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ ، وأصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال أو نقد – لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الإقطاع . ولهذه المنقبة فضل كبير في جمع كلمتهم ، وتأييد مساعيهم ؛ لأن الأمة إذا عملت برأي عقلائها كانت كلّها عقلاء . بخلاف الأمم التي يزعم كلٌّ من أفرادها أنه صاحب الرأي الأصوب والنفوذ الأعلى . ويرى الانصياع لرأي سواه صَغَاراً ومذلة كما هو شان الأمم الضعيفة التي صارت إلى الشيخوخة ، وآذن الزمان بفساد أمورها وانقضائها .

---

(1) كذا وردت

الصدق والوفاء

المشهور أن الإنكليزي على الإجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في أعماله ومشاريعه فما هي علّة نجاحه؟ العلّة الحقيقية أنهم يعملون بالقواعد التي قرّر عقلاؤهم أنها وسيلة النجاح ، وقد رسخت في أذهانهم بالتربية للأسباب التي قدمناها . وهي تعلّمهم أن التاجر أو الصانع يجب أن يعوّل في أعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فجعلوا معوّلهم على الصدق والأمانة والثبات ، وهي أهم أسباب نجاحهم في أعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الأمثال . والمشهور بين تجار الأرض إن الإنكليزي إذا سألته عن سعر بضاعته أعطاك آخر سعر يوافقه ، ولا يفتح باباً للأخذ والرد ، أو المساومة كما تفعل سائر الأمم .

المحافظة على التقاليد

قد رأيت الأمة الإنكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الأرستقراطية رغم إعراقها في الدستورية – حتى الدستور عندها لا يزال محفوظاً بالتقليد أي أنهم لم يدوّنوا قواعده وشروطه بما يسميه العثمانيون القانون الأساسي أو نحوه . وإنما يجرون به على التقاليد الماضية فيحكمون في شؤونه بالقياس على أحكام سابقة أصدرها أسلافهم مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، وإذا عرضت مسالة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها ، وعدّوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم . فالإنكليز من أكثر الأمم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات في أخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من أشد الناس احتراماً لرجال التاريخ منهم ، ينصبون لهم التماثيل ويعملون بأقوالهم ، ولنفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الأمم التي

تدخل في سلطانهم أو حمايتهم . فلا يتعرّضون لهم في شيء من أديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية أو الوطنية . ولذلك كان الشرقيون أكثر ارتياحاً إلى سيادتهم ممّا إلى سواها لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة .

التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بعقائدهم الدينية . ورغم تطرف أكثر الأمم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية ، حتى جاهروا بمناوأة رجال الكهنوت ، ومطاردة الجمعيات الدينية ، فالإنكليز ما زالوا متمسكين بأهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولاسيما الراحة يوم الأحد ، فقد ذكرنا كيف يقفلون الحوانيت والمخازن وغيرها في أيام الآحاد والأعياد .

ومن هذا القبيل أيضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والإذعان له باحترام وافتخار ، لا يستنكف[1] من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً أن يعترف بالخطأ بين يدي أصغر رعاياه ولا يعدّ ذلك حِطّة[2] . وإنما هو من نتاج جنوحهم إلى الحقيقة ، واحترامهم إياها . وتجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلّم هذه المنقبة وأمثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من أساتذتهم أو والديهم أو كبارهم في هذا السبيل .

الشعور بالواجب

إن الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لكنه ظاهر كلّ الظهور في أخلاق الإنكليز . فالإنكليزي يعرف ما عليه من حق أدبي أو مادي ؛ فيؤديه في حينه بلا

---

(1) يستنكف : يمتنع .

(2) الحطّة : نقصان المنزلة .

مطالبة أو استحثاث . يفعل ذلك بهدوء وسكينة . لأنه من أكثر الناس عملاً وأقلهم كلاماً . فإذا وعدك بزيارة كن على ثقة أنه مُنجز وعده . وإذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم أن لا يؤكد لك نجاحه فيها ، وإنما يقول «أني سأجرب» فإذا قال هذا قائل منهم عدُّوا قوله وعداً أكيداً . وهكذا إذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة أو مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه ، فإنه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلا : «ماذا تظن لو فعلت كذا» فيجيبه «أظنني فاعلاً كذا» فيعدّ ذلك وعداً لا بد من قضائه . وهذه التعابير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم .

المرأة الإنكليزية

المرأة في إنكلترا تشبه سائر النساء في أوربا في أكثر الأحوال الاجتماعية والأدبية ، لكنها تفرق عنهنّ بما يقتضيه الخلق الإنكليزي أو التربية الإنكليزية من بعض الوجوه . فهي أميل إلى الحقائق في آدابها وعاداتها وأزيائها . ويمتاز الزي الإنكليزي غالباً بالبساطة لأنهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية – شأنهم في كلّ شيء . وإذا رأيت إنكليزية بثوب مزخرف فإنها تقلّد به غير الإنكليز .

ومن هذا القبيل انصرافها إلى الرياضة البدنية بالألعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الإنكليزية صحيحة البنية نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الإرادة . وقد أخذت تتشبّه بالرجال ، وتجاريهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المتهوّسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب ، وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خُلِقن له ، واستخدمن العنف في مطالبهن . ولا نظنهن إلاّ راجعات إلى الصواب . وحكمنا على المرأة الإنكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنساوية عند كلامنا عن أخلاق الفرنساويين :

«إن المرأة الإنكليزية خُلقت لتهتم بشؤون بيتها وعائلتها ، فإذا تحولت عن ذلك إلى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها»

على أن المرأة الإنكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل

راحته وراحة سائر العائلة ولو مهما كلفها ذلك[1] . لكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وإيابها وقيامها وقعودها . فإذا تزوجت انقطعت إلى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه . فلعل المطالبات بحقوق الرجال من غير المتزوجات .

طريقتهم في الاستعمار

وترى الخلق الإنكليزي الأساسي -نعني التعويل على الحقيقة مع الثبات- ظاهراً في طرقهم السياسية ، كالاستعمار مثلاً فإنّ لهم فيه طريقة تخالف طرق المستعمرين . فهم ينظرون من وراء الاستعمار إلى الفائدة الحقيقية لا يهمهم زخرف السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسعة السلطة بقدر ما تهمهم المصلحة الحقيقية في الاستعمار . وقد وجدوا بعين العقل أن المصلحة الحقيقية من الفتح أو الاحتلال إنما هي المرافق الاقتصادية أو المالية فيوجهون سعيهم إليها . ولا يهمهم بعدها أن تكون لهم سيادة إن لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية . ومن ثباتهم وطول أناتهم صبرهم على استثمار مطامعهم الاستعمارية أعواماً متطاولة ترسخ في أثنائها أقدامهم ، أو تسنح لهم فرص يغتنمونها ، ويؤيدون بها حقوقهم .

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجّلون وضع الحماية أو إعلان السيادة بل بعكس ذلك يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الإداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين الاستقلال الحقيقي . ويهمهم من البلد الداخل في حيازتهم أو تحت نفوذهم أن تكون مصالحهم المادية رائجة فيه ، ولا يبالون أن يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال أو الحماية أو الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلّوا قيود أستراليا وكندا والترانسفال وغيرها . ولا نرى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها إذا تحققوا ضمان مصالحهم الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية ، وأن تكون لهم الأفضلية من الاعتبارات الأخرى .

---

(1) العبارة غير مستقيمة والمقصود هو أن المرأة الإنكليزية تبذل ما بوسعها في سبيل راحة زوجها وعائلتها .

فالسطوة التي بلغت إليها الأمة الإنكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم أكثر مما على ذكائهم . إن الأخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت أربعين مليون إنكليزي يحكمون نحو 350 مليون نفس من أمم شتى في القارات الخمس . وفيهم القوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من اللغات المختلفة . إن الإنكليز استطاعوا ذلك بأخلاقهم المتينة وأساسها الثبات والتعويل على الحقيقة . وإلاّ فإن بين الأمم الداخلة في سلطانهم شعوباً لا يقلون عنهم ذكاء ، ويفوقونهم في كثير من المواهب العقلية . وإنما تنقصهم الأخلاق اللازمة للتغلب أو الاستقلال .

المدنية الحديثة ومدنية العرب

فالإنكليز من أوضح الأمثلة للأخلاق الملائمة لروح هذه المدنية –وإن كانت لا تلائم المدنيات الأخرى . إذ لكل مدنيّة قواعد تبنى عليها دعائمها ولا تصلح إلاّ بها . فمدنية العرب أساسها مناقب العرب في صدر الإسلام ، أهمها : الأريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدنيّة الحديثة . كان الخليفة أو الأمير يعفو أحياناً عن القاتل ؛ لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطر له ويعدّ ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة ، والأخذ بأسباب الكرم ، يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الأضياف أشهراً لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله ، وأتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الأمير أو العامل عشرات أو مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم ، وقس على ذلك مما فصلّناه في تاريخ التمدن الإسلامي . فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدنية الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات ، لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وإنما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية ، والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف بأحكام السياسة الذي ينظر إلى حقائق الأشياء بالنظر إلى مصلحة الأمة ، ويحافظ على العدالة وشروطها ، لا ينفق

قرشاً إلاّ في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوربا لهذا العهد ولكل دولة أيام ورجال .

آثارها

لإنكلترا آثار معنوية في نفوس العقلاء مرجعها إلى الإعجاب بأخلاقهم وتربيتهم ونظام عائلاتهم حتى أعداؤهم فإنهم يعترفون لهم بسمو الأخلاق وثباتها ويحرضون أوامهم على تحدّيها .

أما الآثار البنائية فإنها كثيرة في إنكلترا ، ولا سيما في لندن . وقد ذكرنا شيئاً منها في كلامنا عن هذه المدينة ، وعددنا ما فيها من الأبنية والشوارع وغيرها . ولا يستطيع المار في شوارعها وساحاتها غير الإعجاب بما يراه منصوباً هناك من التماثيل الفخيمة لمشاهير الرجال فإن ، الإنكليز كثيرو الاحترام لأسلافهم يقيمون لها التماثيل كما يقيمونها للقديسين . وكما يُعْجَب الفرنساويون ببونابرت وينصبون تماثيله في شوارعهم وحدائقهم وساحاتهم وقصورهم ، فالإنكليز يفعلون نحو ذلك بتماثيل ولنتن ونلسن ونحوهما . وناهيك بالقصور الكبرى والمعابد الفخيمة فإنها كثيرة في لندن فنكتفي ، بالإشارة إلى أشهرها مما وفّقنا لزيارته في هذه الرحلة فنقول :

كنيسة القديس بولس

إنها قائمة في منتصف المدينة ، وهي أفخم أبنيتها و أعلاها ومن أقدمها عهداً . لم يتفق المؤرخون على أصل بنائها ، ولكنهم متفقون على أنه كان في مكانها معبد من زمن الرومانيين ثم خرب وأقاموا مكانه كنيسة سنة 610 م واحترقت سنة 961م فأعيد بناؤها ، وتوالى عليها الخراب والترميم مراراً حتى جُدّدت كلُّها في أواخر القرن السابع عشر على يد مهندس شهير اسمه خريستوفور رين ، بدؤوا ببنائها سنة 1675 وتمت سنة 1710 ، وأنفق في سبيل ذلك 850,000 جنيه أُخِذت من الأهلين بضريبة

وضعتها الحكومة على الفحم الوارد إلى لندن . وكان رين هذا يستولي في أثناء هذه المدة على راتب سنوي مقداره 200 جنيه في السنة .

بنيت هذه الكنيسة على مثال كنيسة القديس بطرس في رومية لكنها أصغر منها . ومع ذلك فهي أكبر كنائس العالم بعد كنائس رومية وميلان وأشبيلية وفلورنسا . شكلها كالصليب الروماني . طولها 500 قدم وعرضها 118 قدماً ، وعلو قبتها 364 قدماً . قطر قبتها مئة قدم وقدمان . وقطر قبة كنيسة القديس بطرس في رومية 139 قدماً . ويزيد أهميتها في نظر الزائرين ما على جدرانها من النقوش والصور ، وما أقاموه في جوانبها من تماثيل عظماء الإنكليز وأكثر من كبار القواد[1] . فهي بهذا الاعتبار معرض عظمة إنكلترا وإنما يفوقها بذلك دير وست منستر الآتي ذكره .

مدخلها الأكبر من جهة الغرب . وهي قائمة في الداخل على ركائز ضخمة مربعة الجوانب تشبه ركائز جامع السلطان أحمد في الآستانة وتشبهها أيضاً بالشرفة المستديرة المحيطة بأعلى تلك الركائز . يتوهم الداخل لأول وهلة أنها كنيسة كاثوليكية لكثرة ما يراه فيها من الصور ، لكنه لا يلبث أن يرى معظم تلك الصور تمثل مشاهير الرجال . لا يستطيع الداخل إليها إلاّ التهيُّب ممّا يشاهده من فخامة البناء وسعة المكان وما نُصِب في جوانبه من التماثيل الرخامية والبرونزية . فيحسب نفسه في ساحة الحرب ، أو في ساعة الدينونة ، وقد اجتمع نخبة الرجال ليؤدوا حساباً عما فعلوه أو ليتفاخروا في مَنْ كان أشدهم بطشاً ، وأكثرهم فضلاً في تعزيز العلم البريطاني ، وفي الجناح الأيسر من صحن الكنيسة تماثيل جماعة يعرفهم السودان مثل الجنرال القراء وكان لهم دخل في شؤون مصر[2] ستيوارت قائد الفرقة التي تعجلت الذهاب إلى الخرطوم لإنقاذ غوردون سنة 1884 ، وكنا في جملتها فأصيب قائدها ستيوارت برصاصة في بطنه في معركة انتشبت بيننا وبين الدراويش قرب المتمة . سقط ونحن

(1) كذا وردت وأحسب الصوابُ : وأكثرهم من كبار القواد .

(2) العبارة وردت على هذا النحو وهي مضطربة وأحسب الصواب : جماعة من الضباط يعرفهم القراء ، وكان لهم دخل في شؤون مصر والسودان مثل الجنرال ستيوارت . . .الخ .

نراه ولا ننسى تلك الساعة الرهيبة ؛ لأننا كنا في أشد ساعات الخطر . وتمثال الجنرال غوردون ، وقد قتل في الخرطوم قبل وصول الحملة بيومين . وتمثال دوق ولنتون صاحب معركة وترلو ، وتماثيل الجنرال بكتن والجنرال بونسي قُتِلا في وترلو . والأميرال نابيه قائد الأسطول الإنكليزي في البلطيك سنة 1854 ، وهناك طائفة من الأدباء وأرباب الأقلام بينهم رينولدس المصور وباتريك نابيه وهلاند المؤرخان .

وقس على ذلك التماثيل العديدة في الجناح الأيمن والمواقف الأخرى يعرف القراء من أصحابها الأميرال نلسون الذي أغرق الأسطول في أبي قير سنة 1798 ، واشتهر بمواقع رفع فيها شأن الإنكليز في كوبنهاكن وترافلغار وغيرهما . وقد نقشت أسماء تلك المواقع على قاعدة تمثاله . وقد خسر ذراعه اليمنى في واقعة قادس ، فجعلوه في التمثال متّشحاً برداء يغطي تلك الذراع . ومنهم الجنرال ابركرومبي الذي قتل في أبي قير سنة 1801 ، والجنرال مور الذي قتل في كروتا بأسبانيا . والأميرال هو الذي أنقذ جبل طارق سنة 1782 ، وفي بعض الحنايا تذكار للمقتولين في حرب القرم وحوله الأعلام التي كانت لهم هناك . ومن المشاهد الهامة في هذه الكنيسة قبتها ؛ لما تشرف عليه من الأبنية البعيدة فقد صعدنا إلى قمتها بسلّم درجاته ستمئة وعشرون درجة ، فأشرفنا على لندن كلها ، كما أشرفنا على باريس من قمة برج إيفل . أما القبة فلها شأن خاص شاهدنا مثله وراء محراب كنيسة أريني بالآستانة . نعني تفخيم الصوت فإن حول قاعدة هذه القبة من الداخل شرفة مستديرة قطرها نيف ومئة قدم ، ومحيطها نحو 320 قدماً . يشرف المار فيها على صحن الكنيسة وتسمى «قاعة التهامس» دخلناها من باب في بعض جوانبها فرأينا شيخاً يهمس في الحائط بصوت يكاد لا يسمعه الواقف بجانبه . فأومأ إلينا أن نذهب إلى مقعد في الجانب الآخر من تلك الشرفة . فمشينا ونحن نسمع الصوت يرتفع كلما بعدنا عن ذلك الشيخ .فلما وصلنا إلى الطرف الآخر سمعناه كالخطيب يتلو علينا خطاباً في تاريخ هذا البناء .

وتحت أرض الكنيسة سراديب مرصّفة بالفسيفساء ، فيها تماثيل وأضرحة للمشاهير أيضاً . منها ضريح للدوق ولنتن من الرخام السماقي قائم على قاعدة من الغرانيت وحوله الأعلام التي اكتسبها من أسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا . وبجانبه المركبة التي حملت جثته . وضريح بكتن زميله في وترلو . وفي مكان آخر يقابل

منتصف القبة ضريح نلسون فبه تابوت مصنوع من خشب السارية الوسطى من سواري الدارعة الفرنساوية «لوريان» التي أحرقها أسطوله في أبي قير سنة 1798 ، وبجانبه ضريح رفيقه كولنوود ، وضريحان لنابيه ونورتسك . وتماثيل جماعات من رجال الأدب والتاريخ بينهم السير وليم هورد رسل أعظم مكاتب حربي في القرم . وأضرحة لنساء شهيرات في العلم وغيره .

قصر جيلد هول

اشتهر هذا القصر بقاعته التي تُلقى فيها الخطب العمومية . وفيها خطب روزفلت منذ بضع سنين خطابه المشهور الذي ذكر فيه مصر وسياسة إنكلترا فيها . يمر الزائر من كنيسة القديس بولس إلى جيلد هول بشوارع هي أكثر شوارع لندن ازدحاماً –في جهة اسمها شيبسايد يساوي متر الأرض فيها 250 جنيهاً .

بُنِيَ هذا القصر للمرة الأولى في أوائل القرن الخامس عشر مقراً لقضاة ومجالس البلدية ثم تخرب وأعيد بناؤه وأنشئت فيه القاعة المذكورة وطولها 152 قدماً ، وعرضها 50 وعلوها 89 قدماً . تجتمع فيه المجالس البلدية للانتخابات ونحوها ، وتتلى فيها الخطب العامة . وفيها حوكم جماعة من المجرمين العظماء مثل أرل سيري ، واللادي جان غراي وغيرهما . وفيها تماثيل مشاهير الإنكليز ولاسيما ونلتن ونلسن وشتام وبت ومور . وفي قاعة أخرى تماثيل أخرى في جملتها تمثالان خشبيان غريبا الشكل يعرفان بياجوج وماجوج ولم نعلم سبب هذه التسمية .

وفي جيلد هول مكتبة فيها 000 143 مجلد معروضة للناس . وفيها متحف صناعي للساعات ، وغيرها من المصنوعات الدقيقة وخرائط كبيرة ، وقاعة صور فيها صور تاريخية منها صورة معركة جبل طارق بين الإنكليز والأسبان سنة 1782 ، وصور كثيرين من الملوك ، وصورة يوبيل الملكة فكتوريا الماسي سنة 1897 بالمركبة التي كان يجرها ثمانية أفراس . وتحت الأرض سراديب مثل سراديب كنيسة القديس بولس فيها قبور ونواويس قديمة .

نحن الآن على مقربة من بنك إنكلترا الشهير فلا ينبغي لنا أن نمر به سكوتاً . بني سنة 1734 وأعيد بناؤه كما هو الآن سنة 1827 ليس في ظاهره نافذة لكنهم يضيؤونه من الداخل مبالغة في الاحتفاظ به . أما البنك نفسه أي العمل المالي المعروف بهذا الاسم فـقـد أنشئ سنة 1697 ، وظل هو البنك الوحـيـد في لندن إلى سنة 1834 فأنشئت بنوك أخرى . لكنه لا يزال أعظمها جميعاً ويمتاز عنها كلها بأنَّ الحكومة أذنت له بإصدار الأوراق المالية «بنك نوط» كان رأس ماله الأصلي 12,000,000 جنيه ثم تضاعف مراراً . عدد عماله ألف عامل ولا يخلو من 20,000,000 جنيه ذهب مختزنة في سراديبه المتينة و 25,000,000 جنيه عملة ورق بين أيدي الناس . وهو ينوب عن الحكومة الإنكليزية فيما يتعلق بالديون التي عليها وقيمتها 672,000,000 جنيه بين قبض ودفع وترصيد . وفي البنك مطبعة تطبع أوراقه «البنك نوط» يصدر منها 50,000 قطعة كل يوم من فئة خمسة جنيهات إلى ألف جنيه . ويطبع فيها أيضاً البنك نوت الهندي . وآلاتها بغاية الإتقان وطريقة طبعها تستدعي الإعجاب . ومن عادات هذا البنك أن يتلف كل ما يرجع إليه من أوراقه ولا يدفع للناس إلا أوراقاً جديدة خارجة من يحي يد الطابع -لكنه لا يتلف الأوراق المرتجعة حال استلامها بل يحفظها خمس سنوات في خزائن من حديد لئلا يقتضي الأمر مراجعة شيء منها لشهادة قضائية أو نحوها ثم تحرق . ويبلغ عدد ما يجمع عندهم منها في السنوات الخمس 80,000,000 ورقة وزنها 90 طناً وقيمتها المالية 1750,000,000 جنيه . وإذا فرشت الواحدة بجانب الأخرى في خط واحد تألَّف منها درج طوله 13,000 ميل . وفي البنك آلة لوزن الجنيهات الذهب وفرزها تزن 33 جنيهاً في الدقيقة فما كان منها ناقصاً لفظته خارجاً . وفي البنك مخزن لحفظ الجوهرات . ويحرس البنك شرذمة من الجند ليلاً ونهاراً

واقع على ضفة التيمس وهو من أقدم أبنية لندن وأشهرها . كان معقلاً للملوك ثم جعلوه سجناً للمجرمين العظماء من الملوك أو القواد أو الأمراء . حوله خندق عميق يحيط به ردم سنة 1843 وجعلت الحكومة برج لندن الآن ثكنة للجند . ورممت جدرانه ليبقى حصناً . شكله مربع غير منتظم مساحة أرضه 13 فداناً عليها عدة أبنية يحيط بها سور مزدوج عليه الأبراج . يقال في تاريخ بنائه إنه يرجع إلى وليم الظافر . أقدم قصوره الآن «البرج الأبيض» بُني في القرن الحادي عشر . وهو فخيم وله ذكر رهيب في التاريخ لكثرة من سُجِن أو قتل فيه من العظماء . أشهر ضحاياه السير توماس مور قتل سنة 1535 ، وحنة بولين قتلت سنة 1536 وتوماس كرومويل قتل سنة 1540 ومرغريت بول سنة 1541 والملكة كاترينة هورد سنة 1542 والأميرال سيمور سنة 1549 واللورد سمرست سنة 1553 واللادي جان غراي وزوجها سنة 1554 والسير جون إليوت مات فيه سنة 1632 وغيرهم كثيرون . وممن سجنوا ولم يقتلوا جون بليول ملك اسكتلاندا سنة 1296 ووليم ولسن الاسكتلندي سنة 1350 وداود برويس ملك اسكتلاندا سنة 1347 وجون ملك فرنسا أخذ أسيراً في بوتيه سنة 1356 ودوق أورليان والد لويس الثاني عشر ملك فرنسا سنة 1415 والملك هنري السادس وغيرهم . وكان في البرج مأسدة نقلت إلى مسرح الحيوانات العام .

وفي هذا البرج تحف تاريخية لا يوجد مثلها في سواه منها الأسلحة والألبسة والجوهرات ، أهمها المصوغات الملوكية سيأتي ذكرها . وأول ما يستلفت نظر الشرقي عند دخوله الباب الخارجي للبرج مدفع عثماني أهداه السلطان عبد المجيد لإنكلترا سنة 1757 وإذا دخل البرج فأهم ما يشاهده هناك المصوغات الملوكية الإنكليزية ، وقد ذكرنا المصوغات الملوكية الفرنساوية التي شاهدناها في متحف اللوفر لكن هذه أفخم وأثمن .

إن هذه المصوغات ، أو المجوهرات معروضة في غرفة صغيرة في وسطها دكة مثمنة الأضلاع يكاد يقرب شكلها من الاستدارة . عليها رفوف مرتبة بعضها فوق بعض

بشكل هرمي وضعوا تلك المصوغات عليها بحيث يراها المشاهدون . لكنهم أحاطوا تلك الدكة بسياج من شبك الحديد وألواح من الزجاج . وبين الدكة والحائط ممر يكاد لا يتسع لمرور اثنين ، والحرس وقوف لمراقبة المتفرجين . والمصوغات المشار إليها أكثرها تيجان مرصعة بالحجارة الكريمة بعضها قديم ، والبعض الآخر حديث وهي : «1» تاج القديس إدوارد صنع لتتويج شارل الثاني . سرقه الكولونيل بلود سنة 1671 في جماعة من رفاقه بعد أن قتلوا الحارس لكنهم لم يفوزوا بغنيمتهم «2» تاج الملك إدوارد السابع صنع في الأصل للملكة فكتوريا سنة 1838 ثم جُدِّد للملك أد ورد سنة 1902 وهو من المصوغات الحديثة . مرصع بجواهر لا يقل عددها عن 2818 ماسة و300 لؤلؤة وجواهر أخرى . في مقدمه ياقوتة يقال إنها كانت للأمير الأسود أعطاه إياها دون بادرو صاحب قسطيلة سنة 1367 وقد وضعها هنري الخامس على خوذته في معركة اجنكورت؟ . تحتها ماسة كبيرة تعرف بالماسة الكولينية قدمتها حكومة الترنسفال إلى الملك إدوارد سنة 1907 وهي تنسب إلى ماسة اسمها كولينا سيأتي ذكرها ، وفي مؤخر التاج حجر صغير يقال إنه كان لإدوارد المعترف «3» تاج ولي العهد من الذهب الخالص غير مرصع «4» تاج زوج الملكة ذهب مرصع «5» تاج الملكة ذهب مرصّع «6» تاج الملكة هو طوق من الذهب مغشّى بالماس واللؤلؤ ، وقد صنع كاهما للملكة ماريا ديست زوجة جيمس الثاني «7» صولجان الملك إدوارد من الذهب الخالص طوله أربعة أقدام ونصف ووزنه 90 رطلاً مصرياً . قبضته ضخمة كالتاج يقال إن فيها قطعة من ذخيرة عود الصليب «8» الصولجان الملوكي طوله قدمان وتسعة قراريط عليه صليب مرصّع بالحجارة الكريمة «9» صولجان الحمامة أو عصا المساواة على رأسها تمثال حمامة باسطة جناحيها «10» صولجان آخر فيه صليب مرصع «11» الصولجان العاجي للملكة ماريا ديست فوقه حمامة من العقيق الأبيض «12» صولجان الملكة ماري زوجة وليم الثالث «13» مثال ماسة «كوه نور» الشهيرة ، وهي من أكبر حجارة الماس المعروفة ، وزنها 162 قيراطاً ، والماسة الأصلية الآن في قصر وندسر ، وكانت قبلاً في حوزة ملك لاهور ، ووصلت إلى أيدي الإنكليز سنة 1849 لما فتحوا البنجاب . وشاهدنا مصوغات أخرى ثمينة منها أساور تتويج ، والمهماز الملوكي ، وإبريق زيت التتويج بشكل النسر ، والخاتم والملعقة والمملحة ، وغير ذلك ، ويقدرون

قيمة هذه المصوغات بمبلغ 3,000,000 جنيه ، وفي تلك الغرفة خزانة «فترينة» فيها أمثلة من الأوسمة الكبرى ، ومثال للماسة الترنسفالية المسماة كولينا . أما كولينا الأصلية فقد قسموها إلى الماسة التي تقدم ذكرها في مقدم تاج الملك إدوارد ، وقسموا الباقي إلى ماسات وضعوها على الصولجان .

معرض الأسلحة

وفي برج لندن معرض للأسلحة والأدراع ، فيه أمثلة من المدافع والبنادق والسيوف والحراب والفؤوس لبعضها ذكر تاريخي . منها : سيف جلاد ملك أود ، وأسلحة هندية الأصل أو عربية . ومنها المدفع الذي غنمه الفرنساويون من مالطة سنة 1798 وحملوه على الدارعة سنسيبل الفرنساوية ، فاسترجعه الإنكليز وهم على الباخرة سيهورس بقيادة القبطان فوت . وهناك أمثلة من آلات العذاب كالجامعة التي تقبض على الإبهامين معاً ، والفلق الذي يقبض على القدمين ، والأطواق بالإحاطة بالأعناق . وبينها فاس لقطع العنق صنع سنة 1679 وبجانبه البلاطة التي يسند العنق إليها عند القطع . ومن الأدوات الحربية التاريخية ملاءة التف بها الجنرال وولف لما جرح سنة 1759 وعليها مات . وثوب الدوق والمركبة المدفعية التي حملوا عليها جثة إدوارد السابع .

وفي قاعة أسلحة الفرسان كثير من الأدراع والرماح والخوذ والسهام على اختلاف الأعصر من القرن الرابع عشر فما بعده . وتماثيل أفراس عليها تماثيل فرسان بالألبسة الرسمية والأدراع الثمينة . أحدها يمثل هنري الثامن على جواده وعليه درعه . وآخر يمثل جيمس الثاني سنة 1688 وآخر يمثل شارل الأول وعليه درع مغشاة بالذهب . وهناك غرفة لها ذكر تاريخي لأنها كانت قاعة المجلس ، وفيها تنازل ريتشارد الثاني عن الملك ، وغرف أخرى كانت سجوناً استخدموها الآن لحفظ السجلات وغيرها .

وفي ساحة البرج بقعة فيها نحاسة مربعة نقش عليها ما معناه «إنه في هذا المكان قطع رأس الملكة حنة» . وقد شاهدنا الأبراج والمخادع التي كانوا يستخدمونها للسجن ويأتون فيها ضروب الظلم والفتك بلا حساب ولا تقدير . وناهيك بفنون التعذيب مما

تقشعر له الأبدان–إن من يطلع على ذلك ، ويرى ما عليه الأمة الإنكليزية اليوم من أسباب المدنية ، ومحاربة الجهل ، ومطاردة الظلم يعلم إن الأمة لابد لها من المرور في أطوار من جملتها هذا الطور من الهمجية . وإن ذلك ليس خاصاً ببلد دون آخر ولا أمة دون أخرى .

دار الضرب

وفي هذا البرج بناء خاص لضرب النقود بني سنة 1811 ثم توسع 1882 وقد أتقنت فيه صناعة الضرب وآلاته . ومنها ما يصنع 120 قطعة من النقود في الدقيقة ، وقد بلغ ما ضرب سنة 1909 وقيمته 15000000 جنيه منها 11800000 قطعة فئة جنيه و4000000 نصف جنيه 3816000 نصف ريال و 3993000 فلورين و 6900000 شلين و7028000 نصف شلين و5600000 ربع شلين و21256000 بنس فقس عليه .

قصر وستمنستر

هو قصر فخيم واقع على ضفة التيمس ينعقد فيه البرلمان الإنكليزي . وهو ينعقد في قاعتين فخمتين منه إحداهما لمجلس الأعيان ، والأخرى لمجلس العموم . وقبل الوصول إلى قاعات البرلمان يمر الزائر بقاعات عديدة . الأولى مغشاة بالصور في جملتها صورتان إحداهما تمثل معركة وترلو ، وقد فاز فيها الإنكليز . والأخرى تمثل واقعة ترافلغار ، وقد مات فيها نلسن . طول الواحدة منها نحو 15 متراً . يتصل منها إلى قاعة أخرى جدرانها من الخشب الملون عليه صور أشهر ملوك إنكلترا . ومنها دخلنا قاعة الأعيان في غير وقت الاجتماع . طولها 90 قدماً وعرضها 45 قدماً وعلوها ٥٤ قدماً أرضها مغطاة بصفوف من المقاعد مغشاة بالجلد الأحمر تسع نحو 650 شخصاً . وللقاعة 12 نافذة زجاجها مزين بصور ملوك إنكلترا وملكاتها منذ الفتح . وتضاء القاعة ليلاً بالكهربائية فتزداد جمالاً ، وعلى الجدران بين النوافذ تماثيل للبارونية الذين أخذوا الدستور من الملك جون . غير ما على الجدران من النقوش

البديعة ، بينها الصور الجميلة للملوك وبعض المواقف الدينية . وفي صدر القاعة عرش يجلس الملك[1] يصعد إليه ببضع درجات وإلى يمينه مجلس ولي العهد . وخرجنا من طرف القاعة الآخر إلى غرفة فيها تعاليق ، ومواقف للبرانيط والأردية- لكل من الأعضاء تعليقة عليها اسمه . ومن هناك انتهينا إلى دهليز جدرانه مزدانة بالصور التاريخية . ومنها إلى قاعة متوسطة الحجم فدهليز آخر اتصلنا منه إلى قاعة مجلس العموم . طولها 75 قدماً وعرضها 45 وعلوها 41 قدماً . وهي تشبه قاعة مجلس العموم . بشكلها لكنها أقل فخامة وأبسط رياشاً . عليها مقاعد مكسوة بجلد أزرق مخضر لا يسع أكثر من 476 شخصاً مع أن عدد أعضاء هذا المجلس نحو 670 وقد ترتبت المقاعد صفوفاً . وكرسي الرئيس في صدر القاعة عند طرفها الشمالي ، وإلى يمينه مقاعد لنواب الحكومة كالوزراء ونحوهم ، وإلى يساره رؤساء حزب المعارضين . وبين يدي الرئيس طاولة يجلس إليها الكاتب . ويجلس المخبرون ومكاتبو الجرائد على مقاعد فوق مجلس الرئيس . وفوقها مقاعد للسيدات . وتجاه مجلس الرئيس في الطرف الآخر من القاعة مقاعد للزائرين .

دير وستمنستر

لهذا الدير شأن عظيم عند الإنكليز ؛ لأنه مجتمع مفاخرهم ، ومدافن عظمائهم أو تماثيلهم . يحوي من تلك المفاخر أكثر مما يحويه كل مكان سواه ولا يدفن فيه ، أو ينصب تمثاله في أرضه ألا الممتازون بالشرف والفخر في خدمة الأمة والوطن . والإذن في دفن ميت هناك أعظم شرف تقدر الأمة أن تمنحه لذلك الميت .

والدير بناء قديم ولبنائه تاريخ طيل شكله يشبه من الداخل شكل كنيسة القديس بولس طوله 513 قدماً ، وأعرض نقطة فيه 200 قدم ، وعلوه مئة قدم وقدمان ، وعلو برجه 225 قدماً . دخلناه من بابه الشمالي ولم نكد نتوسط المكان ، ونلتفت ذات اليمين وذات الشمال حتى وقع بصرنا على ما هنالك من قبور العظماء وتماثيل الكبراء

(1) كذا وردت وأحسب الصواب يجلس عليه الملك .

وقد ساد السكوت وتجلّت هيبة الموت فغلب علينا التهيب ، وخُيِّل لنا أننا نسمع من كل قبر نداء ، ونرى في كل تمثال خطيباً . لا غرو ونحن بين بقايا أعظم رجال إنكلترا ، وفيهم القائد الباسل ، والسياسي المحنك ، والشاعر المفلق ، والخطيب المفوه ، والعالم الحكيم ، والمخترع العظيم . وقد تكاتفوا جميعاً في خدمة أمتهم فنهضوا بها إلى أسمى منازل الدول . فأخذتنا العبرة وتذكرنا حال دولتنا في العالم السياسي ؛ فتشاغلنا عن تلك الهواجس بما بين أيدينا من مفاخر الآخرين . إذ لا فائدة من تلك الذكرى وإن عرفنا الداء إذ لا سبيل لنا إلى الداء[1] . وتجولنا إلى[2] أنحاء الدير ، نتفقد المدافن والتماثيل ، ونقرأ أسماء أصحابها ، فإذا فيهم نخبة الساسة والعلماء والشعراء والخطباء وغيرهم يعدون بالمئات ، ويضيق هذا المقام عن تعدادهم فنذكر أمثلة من ذلك في مجاميع حسب الأماكن : منهم : وليم بت السياسي المتوفى سنة 1778 ، وجون هولس دوق نيوكسل «1711» ، وجورج كانين السياسي «1827» ، والجنرال مالكولم ، واللورد بالمرستون ، واللورد متسفيلد ، والأميرال ورين ، والسير روبرت بيل السياسي «1850» وفي مجموع آخر جورج غوردون أرل ايردين ، والسير توماس رافلس «1826» وتشارلس جيمس فوكس ، وكابتن مونتاغيو ، وغيرهم . وهناك زاوية خاصة بالشعراء والأدباء فيها تماثيل جورج غروت الشاعر ، وماكولي المؤرخ ودوق أرغيل الشهير وشكسبير إمام شعرائهم . وروبرت برنس ، وتنسن ، وشارلس دكنس ، وجون ملتن ، ولون فلو ، وغيرهم من الشعراء والأدباء . وهناك زوايا للشرفاء ، وأخرى للأساقفة وغيرهم ممن يستغرق تعداد أسمائهم فقط عشرات من الصفحات فكيف بذكر مناقبهم .

متاحفها

المتحف البريطاني : هو أعظم متاحف إنكلترا ، ومن أعظم متاحف العالم . يشتمل على التحف والآثار مثل اللوفر بباريس ، ويمتاز عنه باشتماله على مكتبة نفيسة يندر

---

(1) كذا وردت وأظنها الدواء .

(2) كذا والصواب في .

مثلها بين مكاتب أوربا . وبناء المتحف فسيح تأسس سنة 1700 ونما ببنائه ومحتوياته حتى بلغ ما هو عليه الآن فنذكر تحفه التاريخية أولاً ثم نأتي إلى مكتبته .

دار التحف

هي عبارة عن المنحوتات والمصنوعات والمنقوشات من الآثار التاريخية ، والفنون الجميلة ، والتحف والذخائر ، ويصح أن يقال في وضعها إنها جمعت آثار الإنسان من أول عهد العمران إلى الآن في القارات الخمس . وفيها من كل شيء أحسنه ، مرتبة على الدول والأمم في قاعات لآثار الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والحثيين والفرس واليونان والرومان والهند والصين واليابان والعرب في الجاهلية والإسلام ، وأمم أوربا الحية وآثارها ، وأمثلة من مصنوعات الأمم المتوحشة وأثارها ومظاهر عاداتها في أفريقيا وأستراليا وأمريكا وجزائر المحيط . ومصنوعات الأمم المتمدنة من الفنون الجميلة ، والتصوير ، والنقش والحفر ، وفيها أمثلة تدهش الناظر . ولكن هذا القسم من التحف في اللوفر أحسن منه في المتحف البريطاني وأوسع . وفي هذا المتحف مجموعة نفيسة جداً من النقود قديمها وحديثها ، ومجموعة للأوسمة وطوابع البريد ، وغير ذلك . غير آثار الإنسان قبل التاريخ .

وكل قسم من هذه التحف يشغل عدة قاعات وبينها من النوادر ما لا يوجد عند الأمم الأصلية التي أخذت التحف منها . مثال ذلك أن بين التحف المصرية مخطوطات من البردي لا مثيل لها في المتحف المصري بالقاهرة . وفيها حجر رشيد نعني الحجر الذي حلّوا منه القلم المصري القديم «الهيروغليف» على أثر حملة بونابرت . فإن هذا الحجر اتصل إلى المتحف البريطاني قبل إنشاء المتحف المصري . شاهدناه في صدر الآثار المصرية في خزانة ، وهو أسود اللون مكسور من أعلاه . وفي المتحف المصري نسخة من هذا الحجر لكنها غير التي استعانوا بها على حلّ القلم المصري . وهناك آثار مصرية ثمينة ، ومومياء عديدة ، ومصوغات .

وقس على ذلك الآثار الآشورية والبابلية ولعلها في المتحف البريطاني أغنى منها في سواه ، وبينها ألوف من السجلات القرميدية المنقوشة بالحرف المسماري ، بينها

القرميدة التي عليها قصة الطوفان كما يرويها البابليون . غير قراميد الصكوك والعقود والمراسلات ، وتماثيل قديمة جداً يظن أنها نحتت نحو 4500 قبل الميلاد . وفيها آثار نينوى وقصور آشورية كاملة نقلت من بين النهرين إلى هذا المتحف بجدرانها وسقوفها وتماثيلها . وفي جملتها تماثيل رجال اشتهروا بالتاريخ مثل أسرحدون نقلاً عن صورته على صخر عند نهر الكلب في بيروت ، وغير ذلك مّما يطول بنا شرحه .

وهناك قاعات للآثار الدينية على اختلاف الأعصر والأمم . وفيها من المشابهة في الظواهر ما يدهش العقل . ومجموعة للساعات القديمة والحديثة والإسطرلاب وغيرها من صنع الأجيال الوسطى . وقد بحثنا بينها عن الساعة التي أهداها الرشيد لشارلمان فلم نقف على خبرها . وشاهدنا بين هذه التحف تمثال طاووس من فولاذ عليه نقوش فارسية وكتابة عربية وهو تمثال «طاووس» إله اليزيديين حملوه من بلد قرب ديار بكر . طوله متر وبعض المتر ، واقف على قاعدة كالطاعة[1] المقلوبة وعليها نقوش .

وفي قاعة المصنوعات الزجاجية مصنوعات عربية من مصابيح وكؤوس ونحوها عليها كتابة عربية بعضها من القرن الثالث عشر للميلاد ، وبينها قطع زجاجية عليها كتابة من عهد الدولة العباسية .

وفي قاعات العادات والأزياء والمصنوعات الشرقية ، سيوف بعضها تاريخي ينسب إلى بلاده في الهند والصين ، في جملتها السيوف الدمشقية الشهيرة والفاريسية والهندية والأفغانية لكل منها شكل خاص . الفارسية منحنية والهندية والأفغانية معتدلة وكذلك الدمشقية ولكنها شديدة الصقل . قبضتها من ذهب بعضها بحد واحد ، والبعض الآخر بحدين . وقس على ذلك السروج وأشكالها .

مكتبة المتحف البريطاني

يعرف القراء غنى هذه المكتبة بالكتب العربية مما يقرؤونه في تاريخ اللغة العربية عن الكتب الموجودة فيها . ويزيد عدد الكتب في هذه المكتبة على مليون كتاب في

(1) كذا وردت وأحسبها : كالطاسة المقلوبة .

اللغات المختلفة ، والمواضيع على اختلاف الأعصر . بينها مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية ، وفيها معرض لتاريخ الخطوط بينها خطوط مشاهير الملوك والقواد والعلماء ، منها توقيع ملوك إنكلترا من ريكاردوس الثاني إلى الملكة فكتوريا ، وتوقيع ملوك آخرين . غير المخطوطات القديمة للكتب الهامة ، ولا سيما التوراة في العبرانية والسامرية واليونانية .

وهناك مجموع لتاريخ الطباعة فيه أمثلة من المطبوعات من أول عهد الطباعة إلى الآن منها نسخة من التوراة باللغة الألمانية طبعها غوتنبرغ سنة 1897 بمبلغ 4000 جنيه ، وهي أقدم المطبوعات على الإجمال . ثم قاعات لتاريخ الطباعة في كل مملكة على حدة .

وفيها أمثلة من الكتب المصورة بالألوان بعضها كتب حوالي العاشر[1] للميلاد ، ومن المخطوطات الشرقية أقدمها إنجيل في العربية والسريانية كتب على رق غزال في القرن العاشر للميلاد . وأقدم الكتب المخطوطة في العربية القرآن ، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية يظن أنها كتبت في القرن الثامن . ومن المخطوطات العربية المصورة بالمتحف البريطاني مقامات الحريري كتبت في القرن الثالث عشر ، وقد نشرنا صورة بها[2] في الجزء الثالث من تاريخ آداب اللغة العربية .

متاحف أخرى

وفي لندن متاحف أخرى عديدة يطول بنا وصفها أهمها «تيت كاليري» ، ويسمى متحف الصناعة الإنكليزية ، وهو يشبه متحف لوكسنبرج في باريس فيه أمثلة من صنع أمهر المصورين والنحاتين الإنكليز . أكثرها خيالي يراد به الفن من حيث تشخيص العادات والأخلاق ، أو الوقائع التاريخية تصويراً بالألوان أو نحتاً على الرخام . ومن أجمل المنحوتات المتقنة فيه تمثال ولنتن على جواده وصورة منحوتة تمثل

(1) كذا والمقصود القرن العاشر .

(2) كذا وردت ولعله قصد صورة لها أو عنها .

حادثة الابن الضال ، ونحوها من الوقائع الشهيرة . ومن الصور صورة المارشال روبرتس على جواده ، ونابليون على الباخرة التي حملته إلى منفاه ، وأخرى تمثل الطوفان وغير ذلك .

ومتحف ويلز : أصله من المتاحف الخصوصية أهدته الليدي ولس المتوفاة سنة 1897 للأمة الإنكليزية ، وهو يساوي 4000000 جنيه واشترت الحكومة المنزل لوضع المتحف فيه بثمانين ألف جنيه سنة 1900 ويمتاز عن سائر المتاحف بدقة ما يحويه من المصنوعات ، ويظهر للمتأمل في تحفه أن جامعها تأنق في انتقائها وسخى في ابتياعها وأنه ذو ذوق سليم في الصناعة . ومن جملة ما شاهدناه فيها طاولة كتابة من زمن لويس الخامس عشر ، وصورة الملك جورج الرابع ، ومصنوعات مختلفة من القرن 17 و18 ، وهناك مجموعة صور محفورة في العاج أو الذهب أو العظم أو منزلة من ميناء في غاية الدقة . ومجموع ساعات وإسطرلابات وإبر مغنطيسية من صنع القرون الأخيرة وآلات هندسية . ورأينا مصباحاً عربياً عليه كتابة عربية منقول من أحد جوامع القاهرة . فهناك قاعة للأسلحة والأدراع والمدافع بينها بنادق قبضاتها منزلة بالعاج عليها نقش جميل مدهش وأدراع مذهبة نحو ما شاهدناه في برج لندن لكنها أتقن وأثمن – وقاعات عديدة للصور الزيتية منها صورة تمثل رحيل يعقوب مع أبنائه إلى مصر ، وغير ذلك من الصور والمحفورات والمصنوعات .

ومتحف مدام تيسو : وهو كثير الشبه بمتحف جريفن في باريس فيه مشاهد تاريخية ممثلة بالشمع كما حدثت حتى يتوهم الناظر أنه يرى الحقيقة كما هي . كل مشهد في غرفة خاصة منها موقف ولنتن عند سرير نابليون وهو ميت ، وتمثيل موت نلسن ، ومقتل غوردون في الخرطوم ، وتولية الملكة فكتوريا . والملك جون يوقع ما يسمونه «ماجنا كارتا» ، ومشاهد أخرى شاهدنا مثلها في متحف غريفن . وتماثيل حديثة منها الملك إدوارد وقبطان التيتانيك ، وسان يتسان صاحب الانقلاب الصيني . وجمهور من عظماء الإنكليز منهم : غلادستون ، وسالس بوري ، وتشمبرلن ، ولويد جورج ، واسكويث ، وإمبراطور الروس ، ومفاتيح قلعة متس . ومشاهير أميركا مثل روزفلت وتافت وغيرهما ، وإذا وقع نظرك على أحدهم ظننته ينظر إليك يوشك أن يخاطبك .

ومتحف فكتوريا وألبرت : وهو أثري تاريخي فيه مصنوعات إيطالية قديمة أكثرها ديني . بينها أمثلة من طرز البناء الإيطالي ، ومصنوعات إيطالية من البرونز والطاسات والأباريق والتماثيل والأصنام الصغيرة . وصور صنع بلنسية بأسبانيا في أوائل القرن الخامس عشر ، وهناك مصنوعات يونانية أكثرها كنائسي . وفي بعضها مصنوعات عربية منها قطعة من إفريز كتبوا عليه إنه منقول من جامع المؤيد بمصر . وساعة شمسية عليها كتابة عربية كاملة طولها متر وعرضها نحو نصف متر لم يذكروا مكانها . وقطعة من عتبة سبيل وغير ذلك . ومن التماثيل الضخمة في هذا المتحف تمثال من عمود تراجان في رومية في قطعتين طول كل منهما نحو 20 متراً ، وعرض قاعدتهما 21 قدماً بقدمنا . وهناك عدد كبير من الآثار الدينية ، وأمثلة عديدة من آثار رومية منقولة بالجبس بينها رؤوس عشرات من القواد الرومانيين والقديسين . وعدة قاعات فيها أنواع من النسج والتطريز نحو ما شاهدناه في متحف كليني في باريس . ولا شك أن أصحاب الأزياء «المودة « يستفيدون من الاطلاع عليها لوضع الزي الجديد . ومنحوتات تمثل حوادث دينية في القرنيين 13 و14 وعلب وأقفال من العاج المخرم في جملتها علبة صنعت في صقلية في القرن 13 م على النمط العربي عليها صور مذهبة .

وفيها مصنوعات أخرى دقيقة تشبه ما في متحف ويلس . وقاعات للأزياء والملابس حسب الأعصر والبلاد ، وهي مجموعة نفيسة لتاريخ الألبسة الشرقية والغربية . ويمتاز هذا المتحف عن سواه بهذه المصنوعات وإتقانها . منها سجادة طولها نحو 13 متراً كتب عليها «946 للهجرة» وأنها حملت من جامع أردبيل . وقس ذلك .

ومن المتاحف التي تستحق الذكر في لندن المتحف الوطني «نيشنال كاليري» وهو مجموع مصورات ومنوعات مثل متحف لوكسنبرج بباريس

بلاد الإنكليز خارج لندن

جمعت لندن أهم المتاحف والآثار ، ولكن في غيرها كثيراً مما يستحق الذكر . ونذكر منها ما وُفّقنا إلى رؤيته في أثناء هذه الرحلة في كامبردج وأكسفورد ومنشستر .

كامبردج : وجدنا كامبردج بلداً عامراً بالمدارس والكليات يكاد يكون قوام عمرانه على تلامذة المدارس ، وأساتذتها ومن يلحق بهم . وربما بلغ عددهم جميعاً نحو 4000 نفس . أما أهل البلد فلا يزيدون على 45000 نفس . ومما استلفت انتباهنا أبنية تلك المدارس التي يتألف من مجموعها «جامعة كامبردج» الشهيرة فإنها متشابهة الشكل قديمة الطرز ، وهو طرز الأجيال الوسطى . والبناء عبارة عن مربع كل ضلع منه مؤلف من غرف متناسقة صفاً واحداً في ثلاث طبقات بعضها للتعليم والبعض الآخر للأكل أو النوم . ووسط المربع حديقة أو فسحة خالية . وفي كل مدرسة كنيسة ، وتتألف المدرسة الواحدة من ثلاثة مربعات ، أو أربعة متقاربة يستطرق بضها إلى بعض . وأبواب الغرف صغيرة على نسق واحد بسيط كثيرة الشبه بالأبنية الشرقية ، وقد سهل علينا الأستاذ براون مشاهدة أجزاء هذه الأبنية ، واستلفت انتباهنا إلى باب غرفته وهو ثخانة الحائط فإذا كان الأستاذ في غرفته أغلق الباب الداخلي فقط ، فإذا خرج أغلق البابين جميعاً .

والسبب في بقاء هذه المدارس على الطِّرْزِ القديم أنها تأسست في الأجيال الوسطى ، فبنيت على طِرْزِها ، وحافظ أصحابها على ذلك الطرز . وقد وصفنا جامعة كامبردج وعدد مدارسها وتلامذتها غير مرة في الهلال .

وفي كامبردج متحف لا يذكر بالنظر إلى متاحف لندن . لكننا شاهدنا فيه ترساً مستديراً عليه نقوش فارسية بينها اسم السلطان نادر شاه فإذا كان المراد به القائد الفارسي المشهور بهذا الاسم كان هذا الترس من التحف الثمينة .

أكسفورد : وهي تشبه كامبردج من أكثر الوجوه وقد عرفت بجامعتها واشتهرت بمكتبتها المعروفة بمكتبة بودليان ، فإنها من المكاتب النفيسة في الآثار الشرقية . وقد جاء ذكرها مراراً عديدة في أثناء ذكر أماكن الكتب بتاريخ آداب اللغة العربية . وفي كامبردج مكتبة نفيسة لكن هذه أوسع وأغنى . وقد سهل علينا الأستاذ مرجليوث رؤية كتب عربية نادرة فيها ذكرناها في أماكنها من تاريخ آداب اللغة . وفي مكتبة أكسفورد كتب خطية إنكليزية وأيرلندية دينية مصورة من القرن الثامن للميلاد .

منشستر : هي مدينة صناعية تكاد تكون معملاً كبيراً لكثرة ما فيها من المعامل والمتاجر . يتوسم القادم فيها ذلك قبل وصوله إليها بما يشاهده من الدخان المتكاثف

فوق أبنيتها . ولذلك كان أكثر سكن أهلها في الضواحي . وهي مثال للجد والعمل وتنافس المواهب الصناعية والتجارية . وقد أتيح لنا مشاهدة معمل للغزل بجوارها فيه نحو 100000 مغزل و20000 مغزل مزدوج و900 عامل . ويدير مغازله آلات بخارية قوتها 2500 حصان . رأينا القطن يدخل بآلات ويخرج مغزولاً خيوطاً دقيقة في غاية الضبط . ويضيق بنا المقام عن وصف تجارة هذه المدينة ، وفي شهرتها ما يغني عن الإطناب

وقد سرّنا ما شاهدناه فيها من تقدم إخواننا السوريين ، فقد عرفنا منهم طائفة حسنة من كبار التجار كما شاهدنا في باريس . وبينهم غير واحد من أصحاب الثروة والتجارة الواسعة . وهم على الإجمال أهل سمعة حسنة ، وقد تخلق أكثرهم بأخلاق الإنكليز من المحافظة على الوقت والصدق في المعاملة ، والتأنّي في الحكم -وهي ميزة للسوري على سواه نعني مقدرته العجيبة في تطبيق أحواله على الوسط الذي يعيش فيه . فتجده في فرنسا كأنه فرنساوي بحركاته وكلامه ومعاملته وسائر أحواله ، وهكذا بإنكلترا أو أميركا . والتجار السوريون في منشستر لهم معاملات واسعة مع أبناء بلادهم في أقطار العالم شرقاً وغرباً ولعملائهم ثقة عظيمة فيهم مثل ثقتهم بالتجار الإنكليز . ومن البيوت التجارية السورية في منشستر : محلات كحلا ، وغبريل ، وجبارة ، ومطر ، ومجدلاني ، وخوري حداد ، وفرح ، وبحمدوني ، وغيرهم .

القسم الثالث: سويسرا

ضاق المقام عن الإفاضة في وصف سويسرا ، وقد زرنا منها : جنيف ، ولوزان ، وإيفيان . وهي من أحسن مصايف العالم لوقوعها حول بحيرة من أكبر البحيرات . تحفّ بها الشواطئ المكسوّة بالغابات الغضّة والقرى العامرة . وكنا لمّا زرنا الأستانة منذ بضعة أعوام أدهشنا بوسوفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالأشجار والقصور ، وقلنا إنها فريدة في العالم . فلما شاهدنا جنيف وضواحيها إذا هي كثيرة الشبه بالفوسفور من حيث مناظره الطبيعية .

وفي جنيف بعض المتاحف والمعارض . وفيها جامعة شهيرة ، وكذلك لوزان فإن جامعتها كبيرة . وأما إيفيان فقد عرفت بمائها العذب يحمل بالقناني المختومة إلى أنحاء العالم المتمدن .

ونختم كلامنا عن هذه الرحلة بفائدة اجتماعية فلسفية شاهدناها في فرناي بجوار جنيف ، وهي القرية التي قضى فولتير أعوامه الأخيرة فيها . ومنزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الأثاث والأدوات في غرفة للنوم والمكتب والمائدة . مما يبعث على التفكير في مصير الإنسان . وإنما أثّر في خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير نصبه أهل القرية في مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام نقشوا عليها بالفرنساوية ما

ترجمته : «إلى فولتير المحسن لفرناي . وقد عمر لأهلها أكثر من مئة بيت ، وبنى لهم كنيسة ، ومستشفى ، وحوضاً للماء ، وسبيلاً ، وكان يقرضهم النقود بلا ربا . وقد جفت[1] المستنقعات ، وأنشأ أسواقاً للبيع والشراء وأطعم أهلها في مجاعة سنة 1771» .

وقفنا عند هذا التمثال برهة ، ونحن نعيد قراءة ما نقش عليه . وإنّ ما أدهشنا منه قوله «وبنى لهم كنيسة» . والقراء يعرفون فولتير ونظره في الكنائس ، وما يتبعها ، فكيف يبني للناس كنيسة؟ إنه لم يبنها لما يرجونه هم منها لأخراهم بل بناها لاعتقاده أنها من أهم أسباب سعادتهم . وأنهم لا يستغنون عن الدين في معاملاتهم . وفي ذلك عبرة للذين يتوهمون استغناء الناس عن الدين .

تمت الرحلة

---

(1) كذا وردت ، ولعلها وقد جفف المستنقعات .

المحتويات

استهلال / محمد أحمد خليفة السويدي 7
المقدمة / قاسم وهب 11
مسار الرحلة 19
نص الرحلة 21

القسم الأول: فرنسا 21
نظام حكومتها
عمرانها
حالتها الاقتصادية
حالتها العلمية
التعليم بمصر
المراسح والتمثيل
مظاهر حضارتها
المركبات العامة
الإعلان
الأزياء
البور بوار «البخشيش»
نظام الاجتماع فيها
طبائع الفرنساويين
الجمال
الاقتصاد والترتيب
معرفة الواجب

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد
لا يعنيني
المفاخرة بالرجال والحريّة
طعامهم وشرابهم
العامّة
العامّة في فرنسا
المرأة في أوروبا
المرأة الفرنساوية
الإرساليات المصريّة
الخلاصة
آثارها
آثار فرنسا المعنوية
فضلها على الشرق
آثار فرنسا البنائية
نوتردام
كنيسة لافوفير في ليون
قصر الأنفاليد في باريس
ضريح نابليون في قصر الأنفاليد
القصور والمراسح وغيرها
متاحفها
متاحف الفاطميين
متاحف باريس
متحف اللوفر
المنحوتات الشرقية
معارض الصور
معارض المصوغات والمجوهرات

مصنوعات شرقية
المكتبة الأهلية
معرض الأوسمة
أثران عربيان
متحف لوكسنبرج
متحف كليني
متحف جريفن
متاحفها في ضواحي باريس
فرساي
متحف فرساي
تريانون
قصر ماليزون
السوريون في باريس

القسم الثاني: إنكلترا 85
نظام حكومتها
عظمتها وعمرانها
ثروة الأمة الإنكليزية
حالتها العلمية
لندن
الفرق بين لندن وباريس
نظام الاجتماع فيها
ضرائب الدخل
العامّة والعناية بهم
أخلاق الإنكليز
– الثبات والتعْويل على الحقيقة

– الكبرياء والأنانية
– التربية البدنيّة والعقليّة
– الصدق والوفاء
– المحافظة على التقاليد
– التدين والنظام
– الشعور بالواجب
– المرأة الإنكليزية
– طريقتهم في الاستعمار
– المدنيّة الحديثة ومدنيّة العرب
– آثارها
– كنيسة القديس بولس
– قصر جيلد هول
– بنك إنكلترا
– برج لندن
– معرض الأسلحة
– دار الضرب
– قصر وستمنستر
– دير وستمنستر
– متاحفها
المتحف البريطاني
دار التحف
مكتبة المتحف البريطاني
متاحف أخرى
– الإنكليز خارج لندن
القسم الثالث: سويسرا 121

هذه الرحلة

ارتياد الآفاق

هذه الرحلة من بين الأعمال شبه المجهولة لجرجي زيدان، إعادتها إلى النور في سلسلة "ارتياد الآفاق" يتيح للقارئ العربي فرصة الاطلاع على أثرهم من آثار واحد من أبرز أعلام النهضة العربية.

لم تكن رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا سنة 1912 رحلة استجمام واستمتاع بقدر ما كانت رحلة علمية مبرمجة، يحتم القيام بها في آخر العمر ليكتب وصفاً مفصلاً ودقيقاً عن أحوال المدنية الغربية في الوقت الذي كانت عيون الشرقيين تتطلع فيه إلى الخروج من ربقة التخلف، والسير في ركاب الأمم المتمدنة.

أراد زيدان أن يبين "ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدنية، بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا، وأخلاقنا". فاختار أهم العناوين التي تقاس بها المدنيات ليقدم للقارئ العربي وصفاً أمينا لما
يندرج تحتها من تفصيلات. فيصف الكاتب العم
ونظامها الدقيق، ونظافة شوارعها وأسواقها،
وملتباتها، وآثارها، وحياة الناس فيها. ويصف
أوروبا، وما أحرزته من تقدم في نيل حقوقها في التع
التصرف التي قد تصل إلى حد الشطط في بعض الأحيا

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
دار السويدي للنشر والتوزيع